

التي تعد اليوم انكليزية بحثة . ولم تجد اللغة الانكليزية في تلك الاستمارة غيرا ولا منقصة . بل ان ابناء تلك اللغة عدوا الاستمارة دليلا على مرونة لغتهم وقابليتها على ان « تطعم » بما تكنه اللغات الاخرى .

فما احراانا نحن ابناء العربية ان نسلك اليوم هذا السبيل فنستعير ما لا وجود له في لغتنا ، ونلبسه صيغة عربية مقبولة فنكتسب بذلك الوفا من الالفاظ الاصطلاحية المعربة .

ولسنا نقول ان « التمريب » هو العباد الوحيد الذي يركن اليه في هذا الباب . كلا ، فان في كتب التراث العربي من الالفاظ القديمة ما يجب العود اليه ، ونفض غبار النسيان عنه ، واحياؤه بالاستعمال . اثنا نشر في كتب التراث القديم ، على الالفاظ الاصطلاحية غاية في الكثرة ، وقد تناثرت في معجمات اللغة وفي كتب العلوم المختلفة . والا كيف تسنى لائمة العلماء القدامى كالفرايبي وابن سينا وابن الهيثم والبيروني والزهراوي والخوارزمي ومن جرى مجراهم في ميادين العلم ، نم كيف تسنى لهم ان يغموا تلك التصانيف النفيسة في بابها ويعبروا فيها عن الحقائق العلمية بمبارة سليمة قوية ؟

وفي هذا ما يبعد الشبهة عن ضعف اللغة العربية مع تسليمنا بفارق الزمن وبواقع الحال التي تتجلى اليوم في اتساع العلوم العصرية وترامي اطرافها . فنقد اخذ العلم الحديث يسير بخطى سريعة جدا لا تجارى الا بالجهد المتصل والدأب المنسق .

لن يفوتنا التنويه بمزية تتحلى بها العربية ، وهي « الاشتقاق » لبيئنا نجد اللغات الغربية تعتمد كثيرا على « النحت » نجد العربية « لغة اشتقاقية » يتاح للباحث ان يستعين بهذه المزية العظيمة ويخرج منها بفوائد جمة تعود على لغة العلم باوفى الشمار .

وبعد هذا التحليل القيم عن دور اللغة في التعبير في عصر التكنولوجيا وشرح الاسباب الحقيقية التي تجعل كثيرا من الاختصاصيين في الميدان العلمي كالاطباء والمهندسين قاصرين عن الكتابة في ميادين اختصاصهم بلغة سليمة نجد سؤالا هاما آخر فرض نفسه في الموضوع ذاته وهو كيف استطاع الدكتور يعقوب صروف والاساتذ احمد زكي ان ينشرا عدة كتب ومقالات في موضوعات علمية عويصة في الفلك والرياضيات والجيولوجيا والنبات والكيمياء والفيزياء بلغة سليمة يستسيغها الذوق وترتضيها قواعد اللغة .

ان الجواب على ذلك يكمن في الحقائق التالية : ان الطبيب والمهندس والعالم المختص بأحد العلوم العصرية لا شك في انه قد اجتاز في اثناء دراسة مراحل دراسية : ابتدائية متوسطة ، اعدادية . لنضع دراسته العالية ونقتصر على المراحل المذكورة فلم يدرس في سنن هذه المراحل اللغة العربية صرفا ونحوا وانشاء؟ فابن ذهب تلك الدراسة ؟ وهي لو احتفظ بها ، ففي ما ارى بالغاية اللغوية التي يبتغيها العالم المختص . فلماذا نراه ، بعد ذلك يكتب بأسلوب يمتوره ضعف ؟ ولماذا يخطئه في قواعد الصرف والنحو ، وهي امور سبقت له دراستها ؟

لعل من يقول ان هذا العالم المختص بمد ان تعمق في فرعه لم يعد يتسنى له الاستمرار على العناية بلفظه لتتركها وشأنها انصرانا منه لفرعه . وقد يكون هذا صحيحا . اما ان نرجع ذلك النقص الى اللغة نفسها ونرميها بما ليست فيه ، فامر فيه كثير من التجني عليها .

وبديهي ان ذوي التخصص هم عادة اناس على قسط كبير من الذكاء والاطلاع ولعلهم من العبث ان يذكرهم المرء بان اداة التعبير نفسه ان يكون موافقا ومن العبث كذلك ان يذكرهم المرء بان العناية بالناحية الادبية من الفكر الانساني لا يجوز اهمالها مهما اهتم الشخص بالتقضية العلمية نفسها . وبما كان هذا بعض السبب في ان الكثير من الجامعات تصر على ان يدرس طلاب العلوم التكنولوجيا على الاقل موضوعا ادبيا واحدا كل سنة عليهم ان ينجحوا فيه بدرجة عالية . فضلا عن الناحية الانسانية التي بهذا يتقضى العالم على صلة بها فانه يتمكن من تلك القوة التعبيرية - القوة اللفظية والاسلوبية - التي تجعله قادرا على صياغة افكاره العلمية في اشكال مستسافة . والذي اهرقه هو ان البعض من اقدر العلماء هو ايضا من اشد الناس فصاحة وقوة في التعبير - مما يجعلنا نقول ان من كان ضئيل الحظ من الفصاحة وقوة التعبير ربما كان ايضا قليل الحظ من القدرة العلمية الحقيقية - ولو انه لا بد من رفض التعميم في مثل هذا المجال .

اما محنة التأليف والترجمة في العلوم عندنا فهي ذات شقين (او اكثر) : اولا ، محنة المؤلف النادر الذي يمشق ما يكتب او يترجم فيه بحيث يكون مستعدا للتضحية بوقته وجهده من اجل الكتابة والترجمة مهما تكن نتائج النشر . ثانيا ، محنة القارئ العربي الذي ما زال بعيدا عن الاقبال على الكتب

لا يستطيع التعبير عن أفكاره العلمية في قالب كتابي مستساغ .

وأول هذه الأسباب هو ضعف تعليم اللغة العربية في الدراسة الابتدائية والثانوية وهي المرحلة التي يتعلم فيها الطالب قواعد اللغة وأسسها وحسب علمي أن وزارة التربية تتعاون في الوقت الحاضر مع مركز البحوث التربوية التابع لجامعة بغداد لوضع كتب جديدة لتعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية .

والسبب الآخر هو أن تعليم هؤلاء في المرحلة الجامعية على الإغراب يكون بلغة أجنبية في العراق إذ لا زلنا نعلم على المراجع العلمية الأجنبية ولمدم توفر هذه باللغة العربية أخذنا بطريقة التدريس بلغة أجنبية .

والسبب الثالث هو أن لغة البيت ولغة الشارع تختلف كثيرا عن اللغة الفصحى ولوجرت محاولة لتقريب اللغة العامية من اللغة الفصحى وعدم استعمال الكلمات العربية ونشر الفصحى عن طريق الإذاعة والتلفزة فبعد مرور وقت طال وقصر سنجد أن اللغة العامية تتقرب من الفصحى .

وهناك سبب رابع وهو عدم تشجيع التأليف باللغة العربية في المجالات العلمية ويجب أن يكون هذا من الشروط المطلوبة في الترقيات العلمية التي تتطلبها الجامعات من أعضاء الهيئة التدريسية .

العلمية رغم دخول العصر التكنولوجي . كيف نعالج هاتين المحتنتين ؟ لا بد من العودة بذلك إلى الجامعة وما تيسره من فرص للتأليف وما تخلقه من حب حقيقي للمعلم في نفوس الطلاب . القضية تربوية ، وحضارية معا . وتحتاج إلى دراسة كثيرة الشعب لا تجدي معها إشارة سريعة . في عجالة كهذه .

ولا ننكر أن الصعوبة التي يحسها المختصون في العلوم هي صعوبة حقيقية لا ينفعنا مطلقا محاولة التقليل من شأنها . وقد انضحت لي أنا شخصا - يقول الأستاذ جرجيس فتح الله - هذه الصعوبة عندما قمت بنقل كتاب - تراث الإسلام - المعروف إلى العربية قبل ستة عشر عاما ، وبمدها أخذت أكتب وأترجم إلى العربية بعض الكتب والبحوث الخاصة بنظرية الموسيقى العربية وقرائها . فقد أدركت من الوهلة الأولى سبب وقوف - لجنة النشر للجامعيين - المصرية التي تالفت في العام 1935 لنقل الكتاب الأول إلى العربية فاخفقت في منتصف الطريق ، أي عندما اصطدمت بآبواب الطب والرياضيات والهندسة والقانون والتعريف الخ ...

وزيادة في الإيضاح يجدر بنا أن نشير إلى أن هناك أسبابا كثيرة تجعل من حملة الشهادات العالية المتخصصين في العلوم كالأطباء والمهندسين والتكنولوجيين في وضع لا يستطيعون فيه الكتابة في اختصاصاتهم بلغة سليمة بل حتى أن البعض منهم

العوامل الطارئة على اللفظة دراسة لقضايا اللفظ والتصحيح والتوليد وغيرها... في ضوء علم اللفظة الحديث الدكتور محمد سعيد : كلية دارالعلوم جامعة القاهرة

فقال : اوليس بظريف ابن اخي يتكلم بالفارسية ،
فلن معاوية ان الكلام بالفارسية لحن « ومن ذلك
البيت المشهور للفزاري

منطق صائب وتلحن احيانا
وخير الحديث ما كان لحنا

ومن معانيها ايضا « التورية » باستخدام معنى
قريب وارادة معنى بعيد ، وعلى ذلك الف ابن دريد
كتابه « الملاحن » قاصدا به استخدام الكلمات وارادة
معان اخرى لا تخطر لأول وهلة على الدهن عند سماع
الكلمة ، وفي مجال المعنى ايضا اطلقت على الخطأ في
المعاني ، وذلك باستعمال الكلمة او التركيب كله على
غير وجهه الذي قرره له العلماء ، وقد الف المفضل
ابن سلمه كتابه « الفاخر فيما تلحن فيه الغامة » من
هذا النوع من الخطأ في المعاني ، وجاء في مقدمته
قوله : « هذا كتاب معاني ما يجري على السن العامة
في امثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب ، وهم لا يدرون

لكتابة هذا البحث حول معنى اللحن في الكلام
العربي وتطور استعماله ومقاومته ينبغي - كما هو
واضح في عنوانها - تناول الامور الآتية :

1 - معرفة المقصود باللحن وبيان مظاهره مع
تقديم نماذج لها .

2 - بيان تطور استعماله في الكلام العربي
باختصار .

3 - حركة المقاومة العلمية التي تمثلت في
جهود العلماء لتنقية اللحن .

لقد بحث كثير من الدارسين في كلمة « اللحن »
وتمدد معانيها ، وتطور هذه المعاني ، ويذكر في هذا
الصدد ان من معانيها « الفطنة والذكاء » استنادا الى
قول الرسول (لعل احدكم ان يكون الحن بحجته من
بعض) او التطرف في الحديث بخلطه بالكلام الاجنبي
او الكلام المتعمد فيه الخطأ كما روى ابن دريد انه
« قيل لمعاوية : ان عبد الله بن زياد يلحن في كلامه ،

معنى ما يتكلمون به من ذلك ، فيبناه من وجوهه على اختلاف العلماء فى تفسيره .

فهذه المعاني وغيرها تندرج تحت كلمة « لحن » وربما استعملت فى تصور متفاوتة خاضعة فى ذلك لتطور الدلالة كما هو شأن الكلمات فى كل اللغات او استعملت بمعان متعددة فى عصر واحد بعد ان تجمعت حول الكلمة ، والذي يبين احد هذه المعاني ظروف الدلالة للنص الذى وردت فيه .

ولا علينا من ذلك كله ، فان اللحن الذى تقصده هنا هو « خروج الكلام الفصيح من مجرى الصحة فى بنية الكلام او تركيبه او امرابه بفعل الاستعمال الذى يشيع اولا بين العامة من الناس ، ويتسرب بعد ذلك الى لغة الخاصة » واللحن بهذه الصفات امر طاريء على اللغة الفصحى ، اذ ان المفترض فى نطق العرب لها اولا هو الصحة والسلامة امتدادا على الفطرة والسليقة ، فهذا هو الاصل ، فما حاد عن هذا الاصل الفطري المتوارث فهو خطأ ، ويوصف نطقه حينئذ بانه « لحن » وغالبا ما يضاف « اللحن » الى « العوام » او « العامة » تنبيها على الاصل الذى جاء منه الخطأ فى الاستعمال .

— قال ابن دريد : فاما اللحن فى العربية ، لانك اذا قات (ضرب عبد الله زيد) لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب ، فكانك قد عدلته عن وجهه ، فاذا امرت عن معنالك فهم (1) عنك .

— سمع ابو عمرو بن العلاء ان ابا حنيفة يبطل القود الا ما كان قتلا بحديد ، فقال له ابو عمرو: ارايت ان ضربه بكذا ، ارايت ان ضربه بكذا ، قال لو ضربه بابو قبيس لم يكن عليه قود ، فقال ابو عمرو: هذا كلام شنع ، قال : وما الشنع ؟ قال : ولا تعرف الشنع ايضا !! (2)

— روى الزجاجي : كان سيبويه مستمليا لحمام بن سلمة — وكان حمام فصيحاً — فاستملاه يوما قول رسول الله (ص) : ليس من اصحابي احد الا ولو شئت اخذت عليه ليس ابا الدرداء ، فقال سيبويه (ليس ابو الدرداء) فصاح به حمام : لعنت

يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت وانما هو استثناء ، فقال سيبويه : لا جرم والله لاطلبن علما لا تنحني معي ، فمضى ، ولزم مجلس الاخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين (3) .

— قال ابن الجوزي : واعلم ان غلط العامة يتنوع ، فتارة يضمنون المكسور ، وتارة يكسرون المضموم وتارة يمدون المقصور ، وتارة يقصرون المدود ، وتارة يشددون المخفف ، وتارة يخففون المشدد وتارة يزيدون فى الكلمة ، وتارة ينتقصون منها ، وتارة يضعونها فى غير موضعها ، الى غير ذلك من الاقسام (4) .

ويستنبط من النماذج السابقة الدلالة على السمات التى يوصف الكلام من اجلها « باللحن والخطأ » فابن دريد يرى الاخلال بالامراب فى مثل (ضرب عبد الله زيد) لحن فى العربية ، وهذا حق ويفسره بالمدول عن الوجه فيه من نصب (زيد) فى العبارة السابقة ، وهذا حق ايضا لكنه يتوسع فى فهم المدول عن الوجه فى الكلام بما يشمل الدلالة ايضا « لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب فاذا امرته فهم منك » وهذه وجهة لفهم اللحن فى المعنى ، ويصادفها المرء كثيرا فى الكتب التى تناولته بالدراسة ، وان لم تصل الى الفهم الشائع منه من الخطأ فى الاعراب .

وابو عمرو بن العلاء يصف نطق ابي حنيفة (ضربه بابو قبيس) بانه « كلام شنع » مستخدما صيغة المبالغة فى وصف الخطأ الامرابي فى الكلام الذى هو « اللحن » وهو ما ذكره صراحة حمام ابن سلمة لسيبويه حين اخطأ فى مثل ما اخطأ فيه ابو حنيفة من قوله (ليس ابو الدرداء) ، اذ صاح به حمام (لعنت يا سيبويه) فمن ذلك يتضح ان اللحن يطلق على الخطأ فى الاعراب اذا حدث فى اللغة الفصحى ، فاستعمل فيها تأثرا بما شاع بين العوام وفى الكلام الدارج ، كما انه يشمل ايضا ما عدده ابن الجوزي من ضم المكسور وكسر المضموم الخ . . وهذا فى معظمه يتعلق ببنية الكلمات ، وقد سماه « غلط العامة » ايضا .

(1) الملاحن ص 6 .

(2) مجالس العلماء ص 110 .

(3) السابق ص 154 .

(4) تقويم اللسان ورقة 2/ .

3 - ومن ذلك (الحشمة) يضمها الناس موضع الاستحياء ، قال الاصمعي ، وليس كذلك انما هي بمعنى الغضب ، وحكى عن بعض فصحاء العرب انه قال : ان ذلك لما يحشم بني فلان ، اي يغضبهم (3) .

4 - ويقولون (بكرت اليك) بمعنى هدوت خاصة ، وقال ابو بكر (ابن دريد) البكور التعجل في جميع اوقات الليل والنهار ، يقال : انا ابكر اليك العشية ، وانشد ابو زيد لضمرة بن ضمرة :

بكرت تلومك بعد وهن في الندي
بسل عليك ملامتي ومقابلي

يقال : بعد وهن ، يعني حيناً من الليل (4)

5 - قولهم للثوب (وشاح) قال محمد (الزبيدي) والشاح نظمان من لؤلؤ يخالف بينهما ، ويعطف احدهما على الآخر ، وتتوشح به المرأة على كشحها (5) .

6 - ويقولون (ذو نفع وضر) فيضمون ، قال محمد (الزبيدي) والصواب (ضر) بالفتح ، واما (للضر) فهو السقم ، قال الله عز وجل : « وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو » (6) .

7 - ومن ذلك (الاستحمام) يكون عندهم بالماء الحار والبارد ، وليس كذلك ، انما الاستحمام بالماء الحار خاصة (7) .

8 - قول المتكلمين (هذه المحسوسات) خطأ ، والصواب (المحسات) لانه يقال : احسست الشيء بمعنى ادركته ، فاما المحسوس فهو المقتول ، ممن حسه اذا قتله (8) .

9 - وتقول (استخفيت من فلان) والعامية تقول (اختفيت منه) وانما الاختفاء الاستخراج ومنه قيل للنباش (مخف) (9) .

10 - وتقول (اصبح القوم) اذا صاحوا وجلبوا ، والعامية تقول (ضجوا) وانما يقال (ضجوا) اذا جزموا (10) .

ومما ذكره ابن الجوزي قوله « وتارة يضمون الكلمات في غير مواضعها » وانهم من ذلك ما يشمل تاليف الكلام العربي ووصف الكلمات في التراكيب اللغوية ، وما يشمل معاني الكلمات في استخدامهما على غير ما قرره لها علماء اللغة ، وهذا الاخير جانب اطلق العلماء عليه ايضاً انه « لحن وخطا » وان لم يكن من الكثرة والشهرة ما للاخلال بالامراب او بنية الكلمات .

فقد اندرج تحت ما اطلق عليه « اللحن » امور ثلاث ، اقلها شهرة واهتماماً الخطأ في المعنى باستعمال اللفظ او التركيب في غير ما هو له من المعنى ، واعظمها شهرة وكثرة واهتماماً من علمائنا الخطأ في بنية الالفاظ او الامراب ، وساقدم هنا امثلة قليلة لهذه المظاهر الثلاثة ، الهدف منها تقديم النماذج لا الاستقصاء ، فان مؤلفات اللحن وحدها - فيما استقرانه - بلغت اكثر من اربعين مؤلفاً ، تحوي مادة لغوية ضخمة لهذه المظاهر الثلاثة ، وسياتي عرض ذلك فيما بعد .

اولاً : من نماذج الخطأ في المعاني :

1 - مما تضمنه العامة في غير موضعه قولهم (خرجنا نتنزه) اذا خرجوا الى البساتين وانما (التنزه) التباعد عن المياه والارياض ، ومنه قيل : فلان يتنزه من الاقدار ، اي يتباعد منها ومنه قول الهدلي :

اقب طريد تنزه الفلاة لا يرد الماء الا اثيابا (1)

2 - ومن ذلك (الطرب) يذهب الناس الى انه في الفرح دون الجرع ، وليس كذلك انما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور او لشدة الجرع ، قال الشاعر وهو النابغة الجعدي :

واراني طرباً نسي الرهم

طرب الواله او كالمختبل (2)

(1) اصلاح المنطق ص 287 .

(2) 3 - 2) أدب الكاتب ص 18 - 19 .

(3) 5 - 6) انظر لحن العوام ص 137 - 206 - 244 .

(7) لحن العوام ص 256 .

(8) ذيل الفصيح ص 102 .

(9) 10) رسالة في اغلاط العوام ورقة 101 .

يخلط فيه العامة ، والعرب تقول (دخل في خمار الناس) أي فيما يواريه ويستتره منهم حتى لا يبين (1)

2 - ويقولون (مقداف السفينة) قال محمد (الزبيدي) والصواب (المجداف) ومنه جدف الطائر بجناحيه يجدف جدوفا ، اذا كان مقصوفا ، فرأيته كأنه يرد جناحيه الى خلفه ويدارك الضرب (2) .

وواضح ان الخطأ في هذين المثالين سببه التطور الصوتي ، لقرب المخرج بين كل من الخاء والغين في (خمار وغمار) وكذلك بين كل من الجيم والقاف في (مجداف ومقداف) وربما نطقت الجيم اولا (ج) ثم تطورت الى القاف .

3 - قال الجاحظ : كان هند عمر بن عبد العزيز رجلا ، فجعلنا يلحنان ، فقال الحاجب (قوما فقد اوديتما امير المؤمنين) قال عمر : انت آذى لي منهما (3) .

4 - قال ابو عمرو : يقال : انزلت له زلة ولا يقال (زلت) وقد اقلقت الباب فهو مغلق ، ولا يقال (مغلق) وقد اقلفته فهو مقفل ولا يقال (مقفل) (4) .

5 - ويقولون (هبت الارياح) مقياسة على قولهم (رياح) وهو خطأ بين ، والصواب ان يقال (هبت الارواح) كما قال ذو الرمة :

اذا هبت الارواح من نحو جانب
به اهل مي هاج قلبي هبوبها

والعلة في ذلك ان اصل (ربح) (روح) لاشتقاقها من (الروح) وانما ابدلت الواو ياء في (ربح ورياح) للكسرة التي قبلها ، فاذا جمعت على (ارواح) فقد سكن ما قبل الواو ، وزالت العنة (5) .

6 - ويقولون للمطهرة (مبيضة) وبعضهم يقول (مبيضاء) والصواب (مبيضة) بالهمزة ، والجمع (مواضيء) (6) .

ويكفي هذه الامثلة العشرة لهذا النوع من الخطأ في المعنى ، او ما وصف بأنه « لحن العوام » والملاحظ على هذه الامثلة - وشبهها كثير - ان الحكم عليها باللحن كان من زاوية الاستعمال في فترة خاصة ، فالتزم هذا الاستعمال وتوقف ، ولم يؤخذ في الاعتبار بالنسبة لها تطور الدلالة التي قد تتغير من جيل لجيل ، فالكلمات ليست احجارا جامدة ، ولكنها وسيلة اجتماعية يطرا عليها التفسير في معانيها ، والتطور في دلالاتها بحسب العرف القوي السدي يستخدمها ، ومن المفيد ان نلاحظ ايضا ان معاني هذه الكلمات العشر التي حكم عليها بالخطأ ظلت منذ القديم سائدة حتى الوقت الحاضر - وانه لا يخطر ببال احد استعمالها بالعرف الذي رأى العلماء انه هو العرف الصحيح ، فمن ذا الذي يفهم من (خرجنا ننزوه) التبعاد عن المياه والارياض ، ومن (الطرب) الحزن والسرور معا ، ومن (الحشمة) معنى الغضب لا الاستحياء ، ومن (البكور) التعجل عامة ، ومن (الوشاح) نظمان من اولاد لا الشوب ؟؟ ومن الذي يستخدم (الضر) بالفتح في مقابل النفع، ويتترك (الضر) بالضم ويفهم من (الاستحمام) انه للماء الحار خاصة ، ومن (لاختفاء) الاستخراج لا التوارى عن العيون !! فمن الواضح ان تفكير علماء اللغة على هذا النحو تفكير التزم التعميد والتحديد ولم يأخذ في اعتباره المرونة والتطور ، فبقيت دراستهم في واد والاستعمال في واد آخر ، ولست مغالبا ان قلت : ان هذه الجهود كلها افادت من حيث الدراسة في ذاتها ، لكنها لم تتفق مع طبيعة اللغة ، ولذلك لم تغد كثيرا في تعديل ما اطلق عليه (اللحن) في عصرهم او بعد عصرهم .

ثانيا : من نماذج الخطأ في بنية الكلمات :

1 - قولهم (دخل في غمار الناس) هذا مما

- (1) الفاخر فيما تلحن فيه العامة ص 246 .
- (2) لحن العوام ص 69 .
- (3) البيان والتبيين ج 3 ص 24 .
- (4) اصلاح المنطق ص 227 .
- (5 - 6) لحن العوام ص 169 - 174 .

7 - ويقولون (يوم مهول) ، والصواب (يوم هائل) و (امر هائل) يقال : هالني الشيء يهولني هولا ، فهو هائل (1) .

8 - يقولون (استهتر الرجل فهو مستهتر) (بالكسر) والصواب (استهتر فهو مستهتر) (بالفتح) وهو الذي يخلط في اقواله وافعاله ، حتى كأنه بلا عقل (2) .

9 - وتقول : هذه مروحة ومخدة ومقنعة ومنحفة وملة ومذبة ومغرفة ومقطرة ومطرقة ومدقة ومقرعة ومنطقية ومبسررد ومطررد ومبضع ومنديل والمساح - موضع بطريق مكة - والرنج - النجم - كله بكسر الميم والعامة تفتحها (3) .

10 - ويقولون في جمع بيضاء وصفراء وسوداء ، ييضاوات وصفراوات وسوداوات ، وهو لحن فاحش ، لان العرب لم تجمع فعلاء التي هي مؤنث افعال بالالف والتاء ، بل جمعتها على (فعل) نحو بيض وصفر وسود ، كما جاء في القرآن (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) وفي قول امرئ القيس :

وتحسب سامي لا تزال تسرى طلا

من الوحش او بيضا ببيضاء محلال (4)

فالنماذج العشر السابقة - ومثلها كثير - تتعلق ببنية الكلمة العربية ، وتدخل تحت مباحث علم الصرف ، وترتب على ذلك ان الحكم عليها « باللحن والخطا » جاء في ضوء القواعد الصرفية لبعضها يتعلق باختلال بنطق حروف الكلمة بوضع حرف مكان آخر في (شمار وخمار) و (مقدار ومجداف) او باجراء الاعلال وتركه على غير مقتضى قوانين الاعلال والابدال كما في (ازلتت وزلت) او صياغة المشتقات على غير الطريقة المحددة لها في شكل الحروف وكميتها مثل (مفلق ومفلوق - مقفل ومقفول مهول وهائل - مروحة ومروحة .. الخ) . او في الهمز والتسهيل كما في (ميضاه وميضاة) او بناء الفعل للمماوم والمجهول حسبما ورد من العرب وقررت كتب الصرف كما في (استهتر واستهتر واستضحك

واستضحك) او في صيغة الجمع للمفرد كما في (ييضاوات وييض) . فكل هذه المباحث قرر لها علماء النحو والتصريف مبادئ محددة ، وفي ضوء هذه المبادئ غالباً نظروا الى طريقة استعمال اللغة على مدى العصور ، فكل ما وجدوه مخالفا لها ، حكموا عليه « باللحن » ونسبوه الى العوام .

ومن المفيد ان يعرف ان هذا النوع من الخطا قد حظي بعناية العلماء من ائمة فائقة في « كتب لحن العامة » مما لم ينل مثله المظهران الاخران من مظاهر اللحن اللذان يتعلقان بالمعاني او التركيب والاهراب ، ولعل ذلك يرجع الى الاعتقاد بان هذا المظهر من اللحن اشد خطورة على اللغة من المظهرين الاخرين لما يترتب عليه من « تشويه اللغة » وطمس المعاني واضطرابها ، بالاضافة الى ما اطمانوا اليه من ضخامة الجهود النحوية التي تقى من « اللحن » في الاهراب بالنسبة للجهود في بنية الكلمات ووضع القوانين لها .

ثالثاً : من نماذج الخطا في التركيب والاهراب :

1 - تقول (شكرت لك ونصحت لك) ولا يقال (شكرتك ونصحتك) وقد نصح لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب ، قال الله تعالى (واشكروا لي ولا تكفرون) (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم) (5) .

2 - قال الاخفش : اخبرني المبرد قال : انشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه :

وقد مضت لي هشرونان ثنتان

فقلت له : ايها الامير ، هذا لحن ، لان امرابا

لا يدخل على امراب (6) .

3 - من اللحن قولهم (العوام) فيه تبارك وتعالى (هذه صفة ذاته ، وهو مبين بالذات) قال محمد (الزبيدي) ولا يجوز ان يلحق الالف واللام (ذو ولا ذات) في حال افراد ولا تثنية ولا جمع ، ولا تضاف الى المضمرات ، وانما تقع ابدا مضافة الى

(2،1) لحن لعوام ص 253 - 255 .

(3) تقويم اللسان ورقة 25 .

(4) تصحيح التصحيف وتحريير التحريف ورقة - 104 .

(5) ما تلحن فيه العوام ص 25 .

(6) الوشح ص 357 .

9 - (عند) لا تقع الا ظرفا او مجرورة بمن ،
وتقول العامة (ذهب الى عنده) لحن (7) .

10 - وتقول (ما رايت من امس ومن ايام) وهو
غلط ، لان (من) تخص المكان ومد ومد يختصان
الزمان (8) .

وبلاحظ على الامثلة العشرة السابقة ان الكثير
منها يتعلق بتأليف التركيب العربي ، والامر الذي
استقر عليه هذا التأليف بين النحاة ، وما جاء مخالفا
للطرائق المنظمة لذلك ، ينبغي ان يدخل دائرة «اللحن
والخطا» كما هو واضح تماما في (ادخل باللسن
السجن) و (شكرت لك ونصحت لك) و (لا افعل
هذا قط) والصحيح فيه (ما فعلت هذا قط) وكذلك
(لا غير) والقواعد تقضي بان التعبير الصحيح هو
(ليس غير) - كما ان بعض الاخطاء تعود - في نظر
النحاة - الى استخدام الادوات بطريقة غير ما استقر
عليه الامر - وبخاصة حروف الجر - كما في (ذهب
الى عنده) وصحتها (جئت عنده) و (جئت من عنده)
وكذلك (ما رايت من امس) وتقضي القواعد استخدام
(منذ) في هذا الموضع - كما يعود اللحن هنا كذلك
الى الشكل الامرابي ، وخروج الكلام عن مقتضاه ،
كما في (مشرونان) اذ قال المبرد منبها على الخطا
فيها « ايها الامير ، هذا لحن ، لان امرابا لا يدخل على
امراب » وكذلك قول ابي حنيفة (يدخل الجنة قوم
حفاة مراة منتنين) حيث صححها له ابو زيد الانصاري
بقوله (منتنون) تشبيها على الخطا الامرابي في
الصفة .

وطريقة تأليف الكلام واستخدام الادوات
النحوية والامراب كلها من المباحث التي يتناولها النحو
مع غيرها من المباحث التي تتعلق بالتركيب اللغوي
واسراره .

والذي افهمه ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية
في دراسة « لحن العامة » هو ايراد لما حدث في
« اللغة الفصحى » وفي الاستعمال الخاص لهذه اللغة

الظاهر ، - الا ترى انك لا تقول (اللو ولا الدوان ولا
الدون ولا الذات ولا الذوات ولا ذوك ولا ذوه ولا ذوهما
ولا ذوهن ولا ذواتها ، ولا تقول : مررت بذاته ولا
بذاتك) وقد غلط في ذلك اهل الكلام واكثر المحدثين
من الشعراء والكتاب والفقهاء (1) .

4 - قال ابو زيد الانصاري : لقيت ابا حنيفة ،
فحدثني بحديث فيه (يدخل الجنة قوم حفاة مراة
منتنين قد احمشتهم النار) فقلت له : انما هو
(منتنون قد محمشتهم النار) فقال : ممن انت؟؟ فقلت:
من اهل البصرة ، فقال : اكل اصحابك مثلك؟؟ قلت:
بل انا اخسهم حظا في العلم ، فقال : طوبى لقوم
يكون مثلك اخسهم حظا (2) .

5 - ويقولون (ادخل باللسن السجن) والصواب
ان يقولوا (ادخل اللسن السجن) لان الفعل تارة
يعدى بهمزة النقل كقولك (خرج واخرجه) وتارة
بالباء ، كقولك (خرج وخرجت به) فاما الجمع بينهما
فممتنع (3) .

6 - العامة تقول (فعل الغير ذلك) فيدخلون
على (غير) اداة التعريف ، والمحققون من النحويين
يمنعون من ادخال الالف واللام عليه ، لان المقصود
بدخول آلة التعريف على النكرة ان تخصصه لعينه ،
فاذا قيل (الغير) اشتملت هذه اللفظة على ما لا يحصى
كثرة (4) .

7 - والعامة تقول (لا افعل هذا قط) في
المستقبل (ولا افعله ابدا) وهو غلط ، والصواب ان
تقوله في الماضي (ما فعلت هذا قط) اي فيما انقطع
من عمري (5) .

8 - (غير) اسم ملازم للاضافة في المعنى ،
ويجوز ان يقطع عنها لفظا ، ان فهم المعنى وتقدمت
عليها كلمة (ليس) ، وقولهم (لا غير) لحن ، ويقال
(قبضت عشرة ليس غيرها) (6) .

(1) لحن العوام ص 12 .

(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحرير ص 38 .

(3) - 4 تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة 59 - 240 .

(5) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة 254 .

(6) المنفى ج 1 ص 157 .

(7) المنفى ج 1 ص 651 .

(8) رسالة في اغلاط العوام ورقة 122 .

اللحن على أن النحاة انفسهم قد خطاوا فيما بعد قول
النافذة الديباني :

نبت كاني ساورتنى ضئيلة
من الرقش في انيابها السم نافع

وقالوا : كان حقه ان يقول (ناعما) لا (نافع)
فان النكرة لا تصف المعرفة .

وعلى كل حال فان كلمة «اللحن» قد تردت بين
العرب مع ظهور الاسلام فيما نقل عن عهد المبكر ، اذ
نقل ان الرسول (ص) قال : انا من قريش ، ونشأت
من بني سعد فاني لي اللحن ، ونقل عن الصديق (ص)
نوله : لان اقرا فاسقط احب الي من ان اقرا فالحن .
وكان قصة الكتاب المشهور الذي بعث به من العراق
ابو موسى الاشعري الى عمر بن الخطاب وجاء فيه
« من ابو موسى الاشعري » وما رد عليه عمر من قوله:
اضرب كاتبك سوطا واحدا واجز عطاه سنة (2) .

فان هذه الروايات المتناثرة - ان صححت - تدل
على معرفة اللحن في ذلك العصر وفيما قبل ذلك
العصر الاسلامي المبكر ، اذ ان استخدام اللفظة في
ذلك الوقت المبكر وفهم المقصود منها حينذاك قد
سبقه ما يسوغ هذا الاستخدام وذلك الفهم ، وفي
ذلك دلالة غير مباشرة على حدوث ذلك في الجاهلية
وان لم ينقل ذلك وتنقل مظاهره .

وحين تاخر الزمن قليلا - في عهد الامويين في
القرن الاول الهجري - اصبح اللحن قضية ذات
خطر في استعمال اللغة ، وهذا طبيعي اذ اتسعت
الدولة الاسلامية ، وكثرت دواعي الاختلاط بالاجانب
من الحرب والجوار والخدمة والمعايشة ، وجاءت من
ذلك روايات تصور مواقف حدث فيها اللحن بين
الخاصة وفي حضرة الخلفاء ، وهي لهذا السبب
نفسه استحقت الرواية والتناقل ، ولنا ان تخيل
الاطعنا الكثيرة مما لم ينقله احد او يعني به ، لانه كان
يحدث بين الناس العاديين من جمهرة العرب
والمسلمين ، واكبر الدلالة على ضخامة ذلك وكثرته انه
كان سببا في بداية النحو العربي حول النصف الاول
من القرن الاول الهجري على اختلاف الرواة فيمن
تنسب اليه تلك النشأة .

في مجالات المواقف الجادة من القول بين العلماء
والخاصة ، ويصح بناء على ذلك قبول ما رآه بعض
الدارسين من ان « المصوم » الذين اضيف اليهم
« اللحن » في كتب « لحن المصوم » هم مصوم
العلماء والخاصة ، فهو رأي يقبل من هذه الاخطاء
القليلة التي تتعلق بالتركيب والاصراب اما ليس
ذلك من مظاهر اللحن المتعلقة بالمعاني او بنية الكلمات،
وكذلك في هذا المظهر في اضافته الى العامة من
الناس العاديين ، فالغلب ظني ان كل ذلك كان شائعا
الى حد الكثرة ، وانه لم يكده القرن الثاني ينقضي
حتى تنوحت العاميات وكثرت الاخطاء بين الناس
العاديين والمتخصصين على سواء .

لكن : متى بدأ اللحن في الكلام العربي وكيف
تطور ؟

لا يستطيع الوصول الى حقيقة حاسمة من هذه
الظاهرة في العصر الجاهلي - شأنها في ذلك شأن
كثير من ظواهر اللغة والادب من هذا العصر - فان
كثيرا من شؤون الجاهلية تكاد تكون مطبوسة
تماما ، او على الاقل غير مؤكدة ، اذ تعتمد على الظن
الغالب لا الادلة المتينة ، والغالب ان اللغة العربية في
العصر الجاهلي كان لها مستويات متعددة ، تختلف
فيما بينها باختلاف القبائل وعرف كل قبيلة في
لهجتها ، وان اللغة العامة التي كانت وسيلة التفاهم
بين الجميع حدث فيها احيانا اللحن والخطا ، ولو صح
ان الاهتمام باللغة ودراستها قد تقدم به الزمن الى
العصر الجاهلي ، لجاتنا كتب في «لحن العامة» من
هذا العصر كما حدث في القرن الثاني الهجري وما
تلاه حين نضجت الدراسة وتنوحت ، وكان اللحن احد
المظاهر التي اهتمت بها . وقد روى ان طرفة بن العبد
قال وهو صغير :

يا لك من قبرة بمممر
خلا لك الجو فيبيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري
قد رفع الفخ فماذا تحلدري

لا بد يوما ان تصادي فاصبري (1)

فما هو الوصف الذي كان من المتوقع ان يطلقه
النحاة على عبارة (ماذا تحلدري) غير الضرورة او

(1) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج 3 ص 110 .
(2) انظر : مراتب النحويين ص 5 - 6 .

والمنف مع من يلحن في كلامه كما هو واضح في ذلك
الإنكار والردع من الحجاج لهند بنت أسماء - كما
تدل في الجانب المقابل على أن «الخلو من اللحن»
يمثل الجانب الشريف الذي يستحق به صاحبه
الفخر والثناء ، كما هو واضح من أسلوب الإعجاب
الذي يقرر به الاصمعي هذه الحقيقة عن الشمبي
وعبد الملك والحجاج وابن القرية .

فما روي من « مواقف اللحن » في القرن الاول
الهجري قد لابسه العار والاحتقار او الإنكار والردع ،
او استحقاق من يعري عنه الفخر وحسن الذكر مما
يفهم منه أن اللحن كان يمثل في ذلك الوقت أمرا
جديدا خطيرا ، او بعبارة أدق : أن شيوعه بين
الناس كان ظاهرة جديدة خطيرة يستحق من يبرأ منها
الثناء والشكران ، كما يستحق مرتكبها الزجر
والنكران .

فإذا ما تأخر الزمن الى القرن الثاني الهجري -
وبخاصة النصف الثاني منه وما تلاه - أصبح ما كان
احساسا بالخطر خطرا حقيقيا ملموسا ، وما كان
مواقف متناثرة تذكر فتنكر أمرا شائعا بين الناس من
غير تكيز ، وترتب على ذلك نشاط علمي متنوع ، ففي
رواية اللغة رحل العلماء للبادية ، وانصرفوا عن
الحضر بعد أن شاع فيه اللحن ، فلم تعد اللغة - في
نظرهم - أهلا للنقل والاحتجاج ، وفي الدراسة
اللغوية نشطت حركة التنقية التي بدأت في هذه
الفترة بكتاب الكسائي الذي لا يزال موجودا بين
أيدينا لأن من « ما تلحن فيه العامة »

* قال الرشيد يوما لبنيه : ما ضر احدكم لو
تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ، أيسر احدكم أن
يكون لسانه كلسان عبده أو أمته (4) !! .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم
بكلام لحن فيه ، فقال جعفر بن يحيى : يا أمير
المؤمنين انه قد لحن . فقال الرشيد للفراء : اتلحن
يا يحيى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : إن طباع أهل
البدو الأعراب ، وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا
حفظت أو كتبت لم اللحن ، وإذا رجعت الى الطبع
لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه (5) .

* كان لخالد بن يزيد بن معاوية أخ ، فجاهه
يوما فقال : إن الوليد بن عبد الملك يعبث بسى
ويحتقري ، فدخل خالد على عبد الملك - والوليد
منده - فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد قد
احتقر ابن عمه عبد الله واستصغره - وعبد الملك
مطرق - فرفع رأسه وقال : (إن الملوك إذا دخلوا
قرية افسدوها - الآية) فقال خالد (وإذا أردنا أن
نهلك قرية - الآية) فقال عبد الملك : أفي عبد الله
تكلمني وقد دخل علي فما أقام لسانه لحننا !! فقال
خالد : أفعلى الوليد تمول !! فقال عبد الملك : إن كان
الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ، فقال خالد : وإن
كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد - في كلام كثير
طويل (1) .

* تكلمت هند بنت أسماء بن خارجة ،
فلحنت وهي عند الحجاج ، فقال لها : اتلحنين وانت
شريفة في بيت قيس !! فقالت : أما سمعت قول أخي
مالك لامرأته الانصارية ؟ قال : ما هو ؟ قالت :
منطق صائب وتلحن أحيانا

وخير الحديث ما كان لحننا
فقال لها الحجاج : إنما منى أخوك اللحن في
القول - إذا كنى الحديث مما يريد - ولم يعن اللحن
في العربية فأصلحي لسانك (2) .

* وروي عن الاصمعي قوله : أربعة لم يلحنوا
في جد ولا هزل ، الشمبي وعبد الملك بن مروان
والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج
افصحهم (3) .

والواضح من هذه الروايات الثلاث أنها جاءت
من شخصيات لها تميزها في العصر الأموي سواء من
حدثت منه أو من حدثت في حضرته أو من قبلت
منه ، ويعود هذا التميز الى أنهم من اصحاب الحكم
او من أهل العلم في العصر الأموي ، فكيف كان
الأمر بين العوام من الناس ؟ ومع ذلك فإنها تدل على
العار والاحتقار اللذين يتعرض لهما من « يلحن » في
حديثه ، كما هو واضح في تلك الملاحظة الحادة بين
خالد بن يزيد وعبد الملك من عبد الله بن يزيد
والوليد ابن عبد الملك كما أن فيها دلالة على التشدد

(1) صبح الامشى ج 1 ص 168 .

(2) أمالي المرتضى - القسم الاول ص 15 .

(3) أمالي الزجاجي ص 20 .

(4) صبح الامشى ج 1 ص 168 .

(5) صبح الامشى ج 1 ص 173 .

على طرق السابطة ، وبقرّب مجامع الاسواق (2) «
 وإذا كان اللحن قد امتد الى هؤلاء الاعراب والعلماء
 المتقمرين في نطق اللغة ، فلنا ان تصور ما كان بين
 عامة الناس الذين لا يجيدون اللغة بالطبع او بالصنعة .
 اما في القرن الرابع الهجري - الذي انهى في
 آخره الاستشهاد - فقد وصل الامر الى مده ، وطفى
 اللحن على الخاصة والعامة وعلى اصحاب الطبع في
 البادية واصحاب الصنعة في الحضر .

* يقول الامدي : والمتأخرون لا يكادون
 يسلّمون من اللحن ، وهذا في اشعارهم كثير جدا (3) .
 * ويقول ابو جعفر النحاس : وقد صار اكثر
 الناس يظن على متعلمي العربية جهلا وتمديا حتى
 انهم يحتجون بما يزعمون ان القاسم بن مخيمرة قال :
 النحو اوله شغل ، وآخره بني (4) .

والامدي وابو جعفر النحاس من علماء القرن
 الرابع الهجري الذين عاصروا فترة نهاية الاستشهاد
 باللغة الذي كان من اهم عوامله شيوع اللحن بين
 الناس حتى الشعراء انفسهم ، واصبح اللحن لا
 يكاد احد من المتأخرين يسلّم منه - كما يقول الامدي
 من معاصريه - وصار اكثر الناس يظن على متعلمي
 العربية جهلا وتمديا - كما يقول النحاس - ومن قبل
 كان تعلم العربية من الامور التي يتواصى بها الناس ،
 ويحض عليها الخلفاء والحكام ، وهكذا انقلب الامر ،
 فاصبح تعلم العربية من طريق الصنعة النحوية موضع
 سخرية الناس « والنحو اوله شغل وآخره بني » -
 تماما كما كنا نعيش اليوم في عصرنا الحاضر .

وليس من المفيد كثيرا ان نتابع تطور « قضية
 اللحن » بمد عصر الاستشهاد ، فقد اصبح « اللحن »
 هو القاعدة بين الناس في حياتهم العامة ، وتسرب
 الى التأليف العلمي نفسه ، كما هو واضح في بعض
 موسوعات التاريخ في القرن السادس وما بعده -
 وستأتي نماذج من ذلك - حتى قال احد المتأخرين
 « ان اللحن قد فشا في الناس والالسنة قد تغيرت ،
 حتى صار التكلم بالاعراب عيبا ، والنطق بالكلام
 الفصيح عيبا (5) » .

لماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

* وكان الرشيد مما يعجبه فناء الملاحين في
 الزلازل اذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ،
 فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء
 شعرا يفتنون فيه ، فوجه الى ابي العتاهية - وهو
 سجين - فصنع لهم « زهديته » التي ابكت الرشيد
 حين سمعها منهم ، وفيها :

نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنوح

لتموتن وان عمرت ما عمر نوح (1)

وقد اخترت هذه النماذج الثلاثة قصدا عن
 « عهد الرشيد » الذي عاصر الفترة الاخيرة من
 القرن الثاني ، وهي تدل على الامور الآتية :
 ان اجادة الفصحى اصبحت صناعة يحث
 الرشيد ابتداء على الاخذ منها بما يصلح الانسان كيلا
 يكونوا كمن يخالطونهم من العبيد والاماء في اللحن
 والخطا .

وان العلماء انفسهم كانوا يلحنون في حياتهم
 العادية ، ولم يروا ذلك عيبا يفض من شأنهم ، وقد
 اعترف بذلك الفراء قائلا « اذا حفظت او كتبت لم
 اللحن ، واذا رجعت الى الطبع ، لحتت » ونال هذا
 الاعتراف استحسان الرشيد ، لانه الحقيقة .

وان العامة كانوا اشد من ذلك لحننا ، ويمثلهم
 هؤلاء الملاحون في الزلازل الذين يفتنون على مقتضى
 طبيعتهم ، فيعجب فناءهم الرشيد لكنه يتأذى بفساد
 كلامهم ولحنهم ، فمنع من نفسه التأذي بتقديم الكلام
 الفصيح لهم لكن من السلي يمنع ذلك منهم او من
 غيرهم حين يفتنون او يتكلمون في غياب الرشيد !!

وقد استمرت موجة اللحن قوية مندفعة ،
 واطرد نموها بتأخر الزمن ، فالقرن الثالث اقل حظا
 في الفصاحة من القرن الثاني ، وفي الجانب المقابل
 عظم اللحن اكثر من ذي قبل .

وقد روى الجاحظ نوادر كثيرة من « اللحن في
 القرن الثالث » في كتابه البيان والتبيين مما سمعه
 ووصفه ، وعابه على من يتكلمون الفصاحة من علماء
 اللغة والاعراب ، فقال : « ان اقبح اللحن لحن اصحاب
 التعمير والتعميب والتشديق والتعطيط والجهورية
 والتفخيم ، واقبح من ذلك لحن الاماريب النازلين

(1) انظر : الالهاني ج 3 ص 171 .

(2) البيان والتبيين ج 1 ص 146

(3) الموازنة ج 1 ص 416 .

(4) صبح الامشى ج 1 ص 171 .

(5) صبح الامشى ج 1 ص 173 .

وقد بدأت هذه المقاومة منذ القرن الثاني الهجري ، واستمرت فيما تلا ذلك من عصور والجدول الآتي « لكتب لحن العوام » ومؤلفيها - مما عرفته على قدر جهدي - يوضح ذلك :

لقد نظر علماء اللغة اليه من زاوية « الخطأ » فقاوموه بمنف ، ومع ذلك لم ينتصروا في معركتهم معه ، بل أن العكس هو الصحيح ، إذ انتصر اللحن بقلبة الاستعمال وقهر المجتمع اللغوي المتطور باستمرار .

الإشارة الى ما هو موجود	المؤلف وتاريخ وفاته	اسم الكتاب
مطبوع	(172) عني بن حمزة الكسائي	1 - ما يلحن فيه العوام
	(207) يحيى بن زياد الفراء	2 - ما يلحن فيه العامة
	(210) لابي عبيدة معمر بن المثنى	3 - ما يلحن فيه العامة
	(231) لابن نصر احمد بن حاتم الباهلي	4 - ما يلحن فيه العامة
مطبوع	(244) لابي السكيت يعقوب بن اسحاق	5 - اصلاح المنطق
	(248) لابي عثمان المازني	6 - ما يلحن فيه العامة
	(250) لابي حاتم السجستاني	7 - ما يلحن فيه العامة
مطبوع	(276) لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة	8 - تقويم اللسان (ادب الكاتب)
	(290) لابي حنيفة احمد الدينوري	9 - لحن العامة
	(291) لابي العباس احمد بن يحيى ثعلب	10 - ما يلحن فيه العامة
	(300) لابي الهيثام كلاب بن حمزة العقيلي	11 - ما يلحن فيه العامة
	(377) هاشم بن احمد الحلبي	12 - اللحن الخفي
مطبوع	(380) لابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي	13 - لحن العوام
	(395) لابي هلال العسكري	14 - لحن الخاصة
مطبوع	(501) عمر بن مكي الصقلي	15 - تثقيف اللسان
مطبوع	(516) لابي محمد القاسم بن علي الحريري	16 - درة الفواص
مطبوع	(539) لابي منصور الجواليقي	17 - تكملة اصلاح ما تفلط فيه العامة
مصور	(597) لابي الفرج عبد الرحمن الجوزي	18 - تقويم اللسان
مصور	(600) ابن هشام محمد بن احمد اللخمي	19 - لحن العامة
مصور	(727) محمد بن احمد بن جامع	20 - ناظر انسان عين الماني
	(733) لابن هاني محمد بن علي السبتي	21 - لحن العامة
مخطوط	(911) جلال الدين السيوطي	22 - غلطات العوام
مطبوع	(940) لابن كمال احمد بن سليمان	23 - التنبيه على غلط الجاهل والنيبه
مطبوع	(971) رضى الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي	24 - بحر العوام فيما اصاب فيه العوام
مصور	(1000) مصطفى بن محمد خسرو زاده	25 - غلطات العوام
مطبوع	(1307) محمد صديق بن حسن البخاري	26 - لف القمط لتصحيح ما استعملته العامة
مصور	() (مجهول)	27 - افلاط العوام والخواص
مصور	() (مجهول)	28 - سقطات العوام
مطبوع	(1322) حسن توفيق العدل	29 - اصول الكلمات العامية
مطبوع	() حسن علي البدرابي	30 - تهذيب العامي والحرف

ملاحظات على مقاومة العلماء اللحن :

1 - بنظرة واحدة الى الجدول السابق الذي امكنني معرفة مافيه من كتب لحن العوام - الموجود منها والمفقود - يتضح ان مقاومة العامة كان شديدا في القرن الثاني والثالث والرابع ثم بدأ يقل تدريجيا بمد ذلك ، ولهذا دلالة ، حيث قاوم العلماء بقوة مظاهر اللحن في الفترة التي كانت اللغة موردا للدراسة ، والصلة قريبة بين المادة التي امتقدوا تقاوتها حين ترد من البادية ، وبين تنقية الفصحى المستخدمة في الحضرة قياسا عليها .

2 - كان من المفترض ان تعتمد التنقية على استقراء لاستعمال اللغة التي يماصرها المؤلف والتي تستعمل بين الناس في عصره ، ولكن الذي حدث - فيما اطلمت عليه منها - لم يكن كذلك ، بل اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، فكانوا ينقون غالبا ما اورده من سبقوهم في كتبهم وعلى سبيل المثال اعتمد ابن قتيبة في « تقويم اللسان » على ابن السكيت في « اصلاح المنطق » واعتمد الزبيدي في « لحن العوام » على من سبقه من العلماء ، فكان يذكر اسماءهم دون كتبهم - واعتمد ابن الجوزي في « تقويم اللسان » على كتب من سبقوه ، وذكر في مقدمة الكتاب انه جمع فيه ما رآه مبددا في كتب من سبقوه ، وانتخب من ذلك ما تم به الجاوي دون ما يشد استعماله ويندر ، ونقل السيوطي كتاب ابن الجوزي بومته ، ونسبه لنفسه تحت عنوان « غلطات العوام » .

3 - يلاحظ انه يقصد بالعوام والعامة فيما اطنمت عليه من تلك الكتب الناس العاديون بدليل النص احيانا على الخواص والخاصة ، ولكن الذي قصدوه بالتنقية هو اللغة الفصحى بعد ان أصبحت تستعمل في مستوى خاص ، وتسرب اليها « لحن العوام » فبقيت النسبة الى العوام ، وان كان المقصود بذلك ما حدث في اللغة الفصحى التي يستعملها الخاصة ، وبذلك نفهم قول الزبيدي (في مقدمة كتابه « لحن العوام » ص 8) « فهذا مما اسدته العامة عندنا ، فأحاولوا لفظه او وضعوه غير موضعه ، وتابهم على ذلك الكثرة من الخاصة ، حتى ضمنتها

الشعراء الثعالب ، واستعمله جلة الكتاب ومنية الخدمة في رسالهم ، ولتأقوا به في محافلهم ، فرأيت ان أنبه عليه ، وأبين وجه الصواب فيه » .

وعلى ذلك فانه لا معنى للتكلف بتوجيه معنى (العامة) الى «عامة العلماء» كما حاول ذلك بعض الدارسين في العصر الحديث .

4 - تمنيت ان اجد في احد هذه الكتب حديثا من « اللحن » فكرة وموضوعا ، لكن لم تتحقق لي تلك الامنية في احدها ، اذ يتجه الحديث فيها مباشرة - بمد مقدمة قصيرة - الى ايراد الكلمات وبيان خطئها او صحتها امتناذاً منى النقل في غالب الاحيان كما سبق ذلك .

5 - ومع نظرة الى هذه الجهود الطيبة المخلصة في الجدول السابق - والى غيرها مما لم امره - يتساءل المرء : هل نجحت كل هذه الجهود في حل قضية اللحن ، وايقاف تياره المتدفق ؟

تسأل يتضح المقصود منه في الفقرة التالية ان شاء الله .

نظرة النحاة الى اللحن بين القواعد والاستعمال :

ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير لا يمر فيه ، فقد نظروا اليه من زاوية « الخطأ » واعتبروه انحرافا عن الطريقة الصحيحة التي ينبغي ان ياتي عليها النطق العربي السليم ، ولم يؤخذ في الاعتبار لديهم قوة الاستعمال وقهره ، وما يترتب على ذلك من تطور وتغير ، فان اللغة - شأنها شأن الظواهر الاجتماعية كلها - تتطور باستمرار في معانيها وبنيتها وتراكيبها ولا تخضع طويلا للقواعد المنسقة والنظام الجميل ، لان اللغة نظامها الذي يفرضه استعمالها بين المتكلمين بها ، وعمل الباحث اللغوي ملاحقة التطور لا مصادره ، وملاحظته لا تجميده ، فان المصادرة والتجميد لا يمكن تحقيقهما بالنسبة للغة نفسها ، وان امكن ذلك بالنسبة لدراستها ومن يدرسونها .

ونظرة النحاة لما اسماه « اللحن » من زاوية « الخطأ » كان سندها « القواعد الحادة » التي وضعوها والزموا انفسهم بها ، وان لم يستطيعوا فرضها على الاستعمال المتطور باستمرار .

ويمكن توضيح ذلك وتأيبده بالامور الثلاثة الآتية :

- 1 - جهود النحاة فى مقاومة اللحن ودورانها حول القواعد .
- 2 - خضوع النحاة انفسهم لسطوة اللحن مع انهم حراس القواعد .
- 3 - التصاعد الذى قام - واستمر قائما - بين القواعد المصنوعة وواقع الاستعمال .

لقد ارتبطت بداية النحو بحدوث اللحن ، والروايات التى رويت عن ذلك كلها تقر هذه الفكرة صراحة او تمثيلا بوصف صورة النطق الملعون فيه والذي كان الدافع المباشر لوضع القواعد، ويبدو ان هذه الصلة بين القواعد واللحن فى فترة البداية ظلت قائمة بعد ذلك مع تقدم الزمن ونضج الدراسة ، وهى صلة قوامها التنافس بين القواعد وما خرج من هذه القواعد من مظاهر اللحن ، على ان تكون القواعد - من وجهة نظر النحاة - هي الحكم فى هذه المظاهر ، او بعبارة اخرى ان القواعد هي « الصواب » وان ما لا يتفق معها من مظاهر الاستعمال هو « الخطأ » .

* قال ابن سلام : اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية ، فكان سراة الناس يلحنون ، ووجوه الناس ، فوضع ابو الاسود باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم (1) .

* وروى القفطى عن ابي الاسود قال : دخلت على امير المؤمنين علي - عليه السلام - فاخرج لي رقعة فيها (الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لعنى) قال : فقلت : ما دعائك الى هذا ؟ قال : رأيت فسادا فى كلام بعض اهلي ، فاحببت ان ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطأ ، فاخذ ابو الاسود النحو من علي - عليه السلام - ولم يظهره لاحد (2) ، ثم اظهره ليما بعد .

وينبغي التوقف فى فهم هاتين الروايتين عن نشأة النحو عند عبارتين فيهما هما (غلبت السليقة ولم تكن نحوية) و (رأيت فسادا فى كلام بعض اهلي فاحببت ان ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطأ) فان هاتين الروايتين تؤيدان ما نزعناه من طبيعة الصلة بين القواعد والسليقة غير النحوية التى يطلق عليها « اللحن » منذ البداية ، واتخاذ القواعد - منذ البداية أيضا - سلطة للتمييز بين « الصواب والخطأ » كما قال - عليه السلام - ان صحت نسبة الرواية الثانية .

وقد بقي هذا الفهم نفسه قائما على مدى الزمن ، اذ طبقة الدارسون ، وخضع له الناطقون بل ازداد مع تقدم الزمن قوة وثباتا ، وفى الوقت نفسه اطرده نمو طرفي القضية من « القواعد » و « السليقة غير النحوية » فزادت مؤلفات النحو تضخما ، وفى الجانب المقابل كان اللحن يزداد انتشارا ، وحين الف سيبويه « كتابه » كان اللحن فى الحضر خطرا صرف العلماء عن لغته الى البداية .

كما انه بالاطلاع على الكتب التى الفت نصا فى مقاومة اللحن - مر جدول عرضها فى الفقرة السابقة - يتضح فيها هذا الفهم نفسه الذى يجعل القواعد مقياسا للصواب فيما وسم باللحن والخطأ من معاني الكلمات وينبئها وتراكيبها ، ويتبين ذلك فى طريقة العرض او فى ذكر القواعد احيانا لتصحيح الخطأ .

* قال الكسائي : وتقول : شكرت لك ونصحت لك ، ولا يقال : شكرتك ونصحتك وقد نصح فلان لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب (3) .

* وقال ابن السكيت : باب ما جاء على (فعلت) بالفتح مما تكسره العامة او تضمه يقال (ما عسيت ان اصنع) قال الله جل ذكره (فهل عسيتم ان توليتم) ولا ينطق منها باستقبال (4) .

* وقال الحريري : يقولون : انضاف الشيء اليه وانفسد الامر عليه (وكلا اللغتين ليستا من كلام

- (1) طبقات فحول الشعراء ص 12 .
- (2) انباه السرواه ج 1 ص 5 .
- (3) ما تلحن فيه العامة ص 25 .
- (4) اصلاح النطق ص 188 .

العرب ، وإنما يقال (اضيف الشيء اليه ولسد الامر عليه) فلا يأتي منهما ذلك (1) .

فهذه نماذج يتبين منها كيفية الطريقة التي سلكها العلماء في جهودهم لمقاومة اللحن ، وإذا كان الكسائي يصحح الخطأ قائلا (هذا كلام العرب) فابن السكيت والحريري يذكران « القواعد » مقاييس التصويب للاستعمال الموسوم بالخطأ واللحن ، فقامدة ابن السكيت في المثال السابق هي « ما جاء على فطت بالفتح مما تكسره العامة او تضمه » وقامدة الحريري « المطاوعة تأتي من الثلاثي المتعدي ، اما الثلاثي اللازم فلا يأتي منه ذلك .

هذا هو طابع الجهد الذي بذل في مقاومة اللحن ، يلخصه انه « التمسك بالقواعد اساسا للتصويب ، وإيراد ما لا يوافق من مادة اللغة للحكم عليه بالتخطئة »

اما الامر الثاني الذي يدل على سطوة القواعد على اذهان الدارسين بمقدار ما يدل على سطوة الاستعمال على السنة المتكلمين فيمثل تلك المفارقة الطريفة من أفراد من علماء النحاة نسب الى بعضهم انه كان يتقعر ويغرب في حديثه على الناس حتى لا يكاد يفهم ، ونسب الى البعض الآخر انه كان يلحن في كلامه ، وربما اعترف احيانا بوقوع ذلك منه ، ولم يعتبره شيئا يفض من شأنه .

وعلى الرغم من ان هذين المظهرين يمثلان طرفين متباينين في الكلام فان النظرة المدققة تكشف انهما يصدران من ظرف لغوي واحد هو « سطوة الاستعمال » الذي وصفه ابن سلام بقوله « غلبت السليقة ، ولم تكن نحوية » فقد دلح ذلك بعض النحاة التي التظاهر احيانا من التمكّن من تلك السليقة النحوية : فأهربوا في حديثهم ولغموه ، واستسلم آخرون للاستعمال اللغوي الشائع ، فخضعوا له معترفين بأنه الواقع وان خالف قوانين النحو وقواعد الاعراب .

ومن النحاة الاول الذين روي عنهم التقصير والاعراب عيسى بن عمر الثقفي (ت 149) الذي روي عنه ذلك في كتب الطبقات التي ترجمت له ، ومن ذلك هذا الموقف الطريف الذي كان يضرب فيه بالسياط لوديعه اضعافا وهو يصيح قائلا : « والله

ما كان الا ايبابا في اسفاط قبضها مشارولا (2) » وروي ذلك ايضا عن ابي علقمة النحوي الذي ساق السيوطي منه المشهد الطريف التالي :

* مر ابو علقمة يوما على عبد حبشي وصقلي ، فاذا الحبشي قد ضرب بالصقلي الارض فادخل ركبتيه في بطنه ، واصابعه في عينيه ، وعض اذنيه ، وضربه بمصا فشجه ، واسال دمه ، فقال الصقلي لابي علقمة : اشهد لي ، فمضوا الى الامير : فقال له الامير : بم تشهد ؟ فقال : اصلى الله الامير ، بينا انا اسير على كودني ، اذ مررت بهذين العبدين ، فرأيت الاسحم قد مال على هذا ، لا يتبع ، فخطاه على فدفد ، ثم ضغطه برضفتيه في احشائه ، حتى ظننت انه تدعج جوفه ، وجعل يلج بشناسره في جحمتيه يكاد يفتؤهما ، وقبض على صناريه بيديه ، وكاد يحدهما ، ثم علاه بمنسأة كانت معه ، فمجنفه بها ، وهذا اثر الجريان عليه بينا .

فقال الامير : والله ما فهمت مما قلت شيئا .

فقال ابو علقمة : قد فهمناك ان فهمت ، واعلمناك ان علمت ، وأدبت اليك ما علمت وما اقدر ان اتكلم الفارسية .

فجهد الامير في كشف الكلام حتى ضاق صدره ، ثم كشف الامير راسه ، وقال للصقلي : شجني خمسا ، واعفني من شهادة هذا (3) .

وقد يشير هذا المشهد ابتسامة الشفقة على ابي علقمة الذي يحمل نفسه هذا الجهد الثقيل من التقعر والاعراب ، امام الامير الذي يعاصره ولكنه لا يستطيع فهم كلامه ، لانه يمثل الاستعمال العادي للكلام ، ومع ذلك فان لابي علقمة من ظروفه الخاصة ومن ظروف عصره ما يقدم له المصدر في طريقته الفريية ، فهو نحوي قام في نفسه ان الكلام العادي داخله الفساد ، ومن حقه ان يستعمل طريقة توالق لغة النحو التي يستنبط منها قواعد .

اما لحن علماء النحو في حياتهم المادية واعترافهم بذلك ، فهو مظهر مهم ، اذ ان في هذا الاعتراف نفسه دلالة على سطوة الاستعمال حتى

(1) درة الفواص ص 22 .

(2) معجم الادباء ج 16 ص 149 .

(3) بنية الوعاة ج 2 ص 139 .

على النحاة الذين يناصبون القواعد ، ويفرضون سلطانها على الاستعمال اللغوي .

* اورد الاصفهاني ان مروان بن ابي حفصه وجه كلامه لحمد الرواية في حضرة الوليد بن يزيد فقال : ما كلام هذا في مجلس امير المؤمنين وهو لحانة !! فتهاقت الشيخ ، ثم قال : يا ابن اخي ، انا رجل اكلم العامة ، واتكلم بكلامها (1) .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلم لحن فيه ، فقال له جعفر بن يحيى : يا امير المؤمنين انه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : اتلحن يا يحيى !! فقال : يا امير المؤمنين ، ان طباع اهل البدو الاعراب وطبعا اهل الحضرة اللحن ، فاذا حفظت او كتبت لم اللحن ، واذا رجعت الى الطبع لحننت ، فاستحسن الرشيد كلامه (2) .

* وقال ابو الطيب اللغوي : كان على المدني لا يغير الحديث وان كان لحننا ، الا ان يكون من لفظ النبي (ص) فكانه يجوز اللحن على من سواه (3) .

فهذه المواقف المتناثرة - على قلتها - قد اعترف فيها بعض النحاة على انفسهم باللحن وانهم يخضعون له جريا على استعمال بقية الناس ، لكنهم في مجال الدراسة ، لم يأخذوا ذلك في الاعتبار ، بل حكموا القواعد في ذلك ، وحكموا على مظاهر اللحن بالخطا

اما الامر الثالث والاخير - فيما نحن بصدده - فهو التصدع بين القواعد المصنوعة واستعمال اللفظة ؛ وهذا امر حدث مبكرا ، ونقلنا اليها بعض نماذج في المشاحنات التي كانت تحدث بين العلماء والشعراء ، ومن ذلك ما حدث بين ابي اسحاق والفردق وبين الاخفش وشار وبين ابن خالويه والثنبي - ونماذجه اشهر من ان تذكر - وفي هذه المواقف - على قلتها - يتمثل ايضا الصراع بين القواعد في يد النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يخضع لتلك القواعد .

وإذا كانت تلك المواقف القليلة تمثل هذه الظاهرة فقط ، فان واقع الامر اخطر من ذلك وأكثر ، اذ ان مظهر الصراع بين القواعد التي استمسك بها النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يتوافق مع تلك القواعد - على الاقل منذ القرن الثاني الهجري - ترتب عليه

اتساع الهوة دائما بين طرفي القضية ، فعانى النحاة من ذلك قديما ، وما زالت هذه المعاناة قائمة حتى اليوم .

اخيرا :

يتضح من عرض الامور الثلاثة السابقة لموقف النحاة مما اطلق عليه « اللحن » تأييد ما افتتحت به هذه الفقرة من رؤياهم له من زاوية « الخطا » وان الذي وجه هذه الرؤية هو مقياس (القواعد لا الاستعمال) وضع ذلك في جهودهم اللغوية ، وبعض مواقف حياتهم الشخصية ، وفي هذا الفراق والخصومة القائمة بين كلا الامرين القواعد والاستعمال .

تلك وجهة نظرهم ، اما مدى توفيقهم فيها ، فله حديث آخر في القسم الاخير من هذا البحث ان شاء الله .

— * —

« التصحيف والتحريف »

معنى التصحيف والتحريف وعلاقتها باختلاف المعنى والبنية والاعراب :

« التصحيف والتحريف » لفظتان بينهما صلة حميمة ، وقد جمعهما العلماء احيانا عنوانا لمؤلف واحد ، كما فعل ابو احمد السكري في مؤلفه « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » وكما فعل من بعده الصفدي في كتابه الموسوعي « تصحيح التصحيف وتحريف التحريف » وقد شرح « التهانوي » في « كشاف اصطلاحات الفنون » المقصود منهما في مكان واحد .

وتعود الصلة بين اللفظتين - مع التجاوز منها فيهما من جنبات لفظي - الى ان مجال البحث فيهما - كما فهمه المتقدمون من العلماء - واحد ، وهو البحث من الخطا الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطا الاملائي في قراءة الحروف المكتوبة ، سواء اكان الخطا في نطق الحروف او شكلها او تبادلها الامكنة .

فالتصحيف والتحريف مظهران للخطا في قراءة الخط المكتوب ، ويترتب على ذلك نطق كلمة جديدة

(1) الاثاني ج 14 ص 110 .

(2) صبح الامشى ج 1 ص 173 .

(3) مراتب النحويين ص 6 .

قد تكون صحيحة لفة ومعنى ، لكنها غير الكلمة التي قصدتها صاحبها حين نطق بكلامه ، أو نطق كلمة ذات بنية معرفة في صيغتها ، ويرجع احرافها الى التغيير في حروفها أو الشكل الداخلي لها ، بل ان مؤلفات « التصحيف والتحريف » قد ورد فيها أحيانا أمثلة - وان كانت قليلة - لاختلاف اعرابية تعود أيضا الى الخطأ في الكتابة أو التوسع في فهم ما يطلق عليه « التحريف » بما يشمل ما يطلق عليه اسم « اللحن » ويتضح هذا المظهر الأخير في كتاب الصفدي (ت 764) « تصحيح التصحيف وتحريف التحريف » إذ أورد كثيرا من أمثلة « اللحن » في كتابه ، ويؤيد هذا نصا ما أورده في بداية كتابه من انه نقله من السابقين عليه ، وقال « لم يكن لي في هذا غير التهذيب وحسن الصرف في التيوب الا ما يتخلل انحاء ذلك من تفسير وتقييد وتقرير وتمهيد » وقد حدد ما اعتمد عليه من كتب السابقين ، وكان منها ما هو نص في « لحن العوام » مثل « ما لحن فيه العامة » للزبيدي ، و « تثقيف اللسان » لابن مكى و « درة الفواص » للحريري ، و « تقويم اللسان » لابن الجوزي الخ . . . فما صنعه الصفدي يحتمل امرين ، الرغبة في تضخيم كتابه فأورد فيه ما يتعلق « باللحن » أيضا وان لم يكن من « التصحيف والتحريف » أو التوسع في فهم المقصود « بالتحريف » بما يشمل اللحن أيضا ، وسواء اكان هذا أو ذاك ، فان ما يهم في هذا الموضوع ان الصفدي قد أورد في كتابه كثيرا من أمثلة « اللحن » وان غيره من سابقيه قد ورد ذلك عنهم على قناعة .

لكن « ليس معنى ما تقدم إن كل واحدة من اللفظتين « التصحيف والتحريف » لم تكن تستخدم الا ومعها الاخرى ملازمة لها ، فان لفظة « التصحيف » استخدمت وحدها كثيرا في مواقف الخطأ في القراءة

التي رويت امثلتها من علماء القرن الثاني الهجري مما نقلته ابنا كتب الادب العامة أو الكتب المؤلفة نصا في موضوع « التصحيف والتحريف » فيما بعد ، وقد جاءتنا هنا وبين تلك المؤلفات مقتصرزة على تلك اللفظة وحدها واقدمها - فيما اعلم - ما صحف فيه الكوفيون لنصولي (ت 335) و « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الاصهاني (ت 360) ويبدو ان كلمة « التصحيف » استخدمت وحدها اولا في وصف خطأ القراءة لما هو مكتوب ، ثم انضمت اليها فيما بعد كلمة « التحريف » مع تداخل المقصود منهما أو تخصيص كل واحدة منهما بنوع من خطأ القراءة كما سيتبين بتفصيل فيما بعد .

هذه مقدمة عامة عن لفظتي « التصحيف والتحريف » من حيث الصلة بين معنيهما واستخدام العلماء لهما ، لندرج من ذلك الى بيان الامور الآتية عن هذين المظهرين من مظاهر الخطأ في اللغة من وجهة نظر علمائنا الاقدمين :

- 1 - التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحريف .
- 2 - سبب وقوع ذلك في الكتابة العربية خاصة .
- 3 - علاقة مظاهر الخطأ التي تربت على ذلك في المعنى والبنية والأعراب والبحث في اللغة مع انها تعود أصلا الى رسم الكتابة .

قبل سوق ما ذكره العلماء عن معنى « التصحيف والتحريف » ينبغي اولا معرفة انواع التغيير التي يمكن ان تحدث في قراءة الكتابة العربية ، ويترتب عليها رواية خاطئة ، وهي اربعة يوضحها للجدول الآتي :

تغيير في الازراب	تغيير في الحروف		تغيير في الحركات		تغيير في النقط	
	تغييرها	الكلمة	تغييرها	الكلمة	مقابها	الكلمة
لو قرأ قاريء في الصحف (ان الله	الماء	المايس	جمهور	جمهور	النوم	الثوم
يسريء ميين	بفغان	بفغان	دمشق	دمشق	الفصل	العسل
المشركين ورسوله)	راجل	رجل	عفريت	عفريت	رجل	رحل
يكسر اللام في (رسوله)	بن الله من	بن الله من	رصاص	رصاص	غم	غم
	وجيل	وجيل				
	شواته	سراينة	قنديل	قنديل	القاضية	القاضية

وهذه النماذج السابقة قد ورد لها مواقف ونصوص تؤيدها ليس هنا مجال ذكرها ، فان القصد من ذكرها هنا ايضاح انواع التغيير تمهيدا لايراد آراء العلماء من التصحيف والتحريف .

* قال حمزة الاصفهاني : اجاب اهل المعاني في معاني التصحيف فقالوا : ان يقرأ الشيء بخلاف ما اراده كاتبه ، وعلى غير ما اصطلح عليه في تسميته ، واما لفظ (التصحيف) فان اصله ، - فيما زعموا - ان قوما كانوا اخذوا العلم عن الصحف من غير ان يلقوا فيه العلماء ، فكان يقع فيما يروونه التغيير ، فيقال عندها : قد صحفوا فيه ، اي : رووه عن الصحف ، ومصدره (التصحيف) مفعوله (مصحف) فاما (المصحف) فمأخوذ من (اصحف اصحافا) واصله ان الصحف جمعت فيه ، فقيل : قد اصحف - ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز (1) .

* قال ابو احمد العسكري : فاما معنى قولهم (الصحنى والتصحيف) فقد قال الخليل : ان الصحنى الذي يروي الخطا على قراءة الصحف باشباه الحروف . (2)

* قال المراكشي : المخالفة في الحديث ان كانت بتغيير حرف او حروف مع بقاء صور الخط ، فان كان ذلك بالنسبة للنقط فالمصحف ، وان كان بالنسبة للشكل فالمحرف . . واما اللحن فلما يرجع للاهراب (3)

* قال التهانوي : قالوا : مخالفة الراوي للثقات ان كانت بتغيير الحروف او الحروف مع بقاء صورة الخط في السياق ، فان كل ذلك بالنسبة الى النقط يسمى ذلك الحديث (مصحفا) وان كان بالنسبة الى الشكل والاهراب سمي (محرفا) - وابن الصلاح وغيره سمي القسمن (محرفا) . (4)

ومن هذه الروايات الاربعة لا يخرج المرء بتحديد حاسم موحد للمقصود بكل من التصحيف والتحريف ،

ولا يخرج كذلك بتحديد حاسم لما يشملته التصحيف والتحريف من انواع التغيير السابقة اذ ان الذي يفهم من حديث الاصفهاني والمسكري عن (التصحيف) انه كما قال اولهما نصا « ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز » فهو اذا مطلق تغيير او تبديل في قراءة الشيء على غير ما اراده كاتبه - كما عرفه الاصفهاني - او رواية الخطا على قراءة الصحف باشباه الحروف - كما عرفه المسكري رواية عن الخليل - سواء اكان ذلك في النقط او الشكل او الحروف .

لكن المراكشي يفرق فيما تناوله من التغيير الذي يحدث للحديث بين التصحيف والتحريف ، بان اولهما يكون في تغيير النقط فقط ، واما ثانيهما فيكون في الشكل ، ويتوقف عند هذا الحد ويزيد عليه التهانوي ان التحريف يكون في الشكل والاهراب ايضا ، وان بعض العلماء يسمي كل ما يحدث له تغيير « محرفا » .

والحقيقة ان المطلع على نماذج التصحيف والتحريف في مصادرها يلاحظ ان الامثلة التي ترد عن ذلك يتنوع التغيير فيها دون ان ينص على ان هذا تصحيف وذاك تحريف وان منها ما يتعلق بتغيير النقط او الشكل او الحروف واحيانا الالهراب .

ومن كل ذلك نستخلص الامور التالية دون تحديد حاسم :

اولا : ان كلا من التصحيف والتحريف يطلقان على رواية الخطا الناتج عن قراءة الرسم العربي ويدلان على مطلق التغيير والتبديل فيما يتعلق بذلك .

ثانيا : يكاد يكون من المتفق عليه ان التغيير الذي يحدث في النقط والشكل والحروف املايا يندرج تحت « التصحيف والتحريف » اما التغيير في الشكل الالهرابي فالظاهر انه خارج عن هذا الموضوع ، فنماذجه قليلة في كتب المتقدمين الخاصة بالتصحيف والتحريف وان اكثر الصفايدي - وهو متأخر - من

- (1) التنبية على حدوث التصحيف ص 36
- (2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 13
- (3) منح المغيث في جواز اللحن في الحديث ص 5
- (4) كشف اصطلاحات الفنون ج 3 ص 836 .

هذه النماذج في كتابه « تحرير التحريف » لأنه اعتمد فيه على كتب لحن العوام ، ونقل منها ما ضخم به كتابه .

ثالثا : ان كلمة « التصحيف » في هذا النوع من الخطا ذات شهرة تفوق في ذلك كلمة « التحريف » وربما كان ذلك لقرب دلالتها على هذا النوع وارتباطها بسببه الذي هو القراءة من الصحف .

رابعا : الفرق بين « التصحيف والتحريف » و « اللحن » ان النوع الاول يتعلق بالخطا المترتب على قراءة الخط ، أما الثاني فمتشبه خطأ النطق لعدم اجادة اللغة .

لكن ما هو السبب أو الاسباب التي جعلت هذه الظاهرة تحدث في رواية اللغة ؟!

والاجابة على ذلك بمباراة مختصرة هي « يرجع السبب الاساسي في ذلك الى الخط العربي وقابليته للتصحيف » ذلك ان حروفه متشابهة يميز بينها النقط التي توضع فوقها أو تحتها كما ان التمييز بين صيغ الكلمات يعتمد على الحركات التي اصبحت تابعة للحروف ، ولم تعتبر في الرسم العربي حروفا مستقلة ، بل رسمت أولا تقطعا فوق الحروف وتحتها وبين يديها ولما حدث الامجاء - وهو تقطع كذلك - ومع تقدم الزمن ، أحدث الخليل بن احمد رسمها ابعاضا للحروف ، كما هي الصورة المستعملة حتى اليوم .

فالخط العربي في البداية لم يكن منقوطة ولا مشكولا ، كما حدث ذلك في المصاحف الخمسة التي كتبها عثمان للامصار ، واستمر الناس يقرؤون فيها - على هذه الصفة - ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، وفي عهد عبد الملك بن مروان - حين كثرت الخطا والتغيير - وضع نصر بن عاصم - فيما يقال - النقط على الحروف للدلالة على ما سمي فيما بعد « بالشكل » ثم كان الامجاء الذي يميز بين الحروف المتشابهة كالجيم والحاء مثلا ، وكانت نقط الشكل تباين في شكل المداد نقط الامجاء ، واستمر الامر كذلك على ما فيه من مشقة - الى ان أحدث الخليل - فيما يقال - الشكل الذي يرسم على هيئة ابعاض الحروف فاراح الناس بذلك من مشقة الكتابة بنوعين من النقط .

فطريقة الرسم العربي في تشابه حروفه وتمييزها بالنقط وضبط نطقها بحركات - لم يكن لها رسم خاص بها مطلقا ، ثم رسمت منفصلة وتابعة

للحروف العربية - يعود اليها المسؤولية الاولى من ظاهرة « التصحيف والتحريف » .

ومع ذلك فقد عاون على اشاعة هذه الظاهرة وخطرها « النساخ » الذين يسمون « بالوراثين » اولئك الذين تنحصر جهودهم في احترام الوراثة لنسخ الكتب العلمية وبيعها للناس ، ولم يكن النساخ والوراقون غالبا على علم باللغة ، حتى يتمكنوا من التمييز بدقة بين كلمة وكلمة يعتمد التمييز بينهما على نقطة أو حركة أو تغيير أحد الحروف ، وحينئذ يحدث الخلط بين ذلك في الكتابة ، وهذا نفسه معنى التصحيف والتحريف .

ويشارك في هذه المسؤولية أيضا - على قلة - علماء اللغة انفسهم ، فان احدهم قد يفهم الكلمة فهما خاما يسوفه السباق له ، أو يسوفه هو لنفسه ، ثم يقرأها ويرونها كما فهم وان لم يتفق ذلك الفهم مع اصلها وما قصدته منها صاحبها ، ويترتب على ذلك أيضا حدوث التصحيف ، وما يؤدي ذلك ضياع مؤلفات « التصحيف والتحريف » بإيراد تصحيقات العلماء في تسم خاص بهم ، بل ان بعض هذه المؤلفات يفرق بين البصريين والكوفيين في ذلك ، فيذكر أشهر العلماء من الفريقين مع ذكر نماذج من تصحيقات كل واحد منهم ، وأول اثر في هذا الموضوع - فيما أعلم - هو كتاب الصولي ، وعنوانه « ما صحف فيه الكوفيون » وقد أورد حمزة الاصفهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » تسم خاصا للعلماء سماه « تصحيقات العلماء في شعر القدماء ص 68 وما بعدها » وعدد من علماء المصريين خمسة وعشرين عالما ، فأورد نماذج من تصحيقاتهم ، وفعل مثل ذلك أبو احمد السكري ، فجعل تسم خاما لـ (ما وهم فيه علماء البحرين) وتسم آخر من « ما وهم فيه علماء الكوفيين » .

لهذه الامور الثلاثة السابقة - الرسم العربي والنساخ وهم العلماء - يعود اليها مجتمعة مسؤولية « التصحيف والتحريف » وان كان الرسم الكتابي اعظمها مسؤولية في ذلك .

✽ قال حمزة الاصفهاني : الذي أبدع صور حروف كتابة العرب لم يفهمها على حكمة ، ولا احتاط لمن يجيء بعده وذلك انه وضع لخمسة احرف صورة واحدة ، وهم (الباء والتاء والثاء والياء والنون) .

وجه الحكمة فيه أن يضع لكل حرف صورة مبانسة
للاخرى حتى يؤمن عليه التبديل. (1) .

* وقال الجاحظ عن تحريف النساخ : لربما
اراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيحا او كلمة ساقطة
فيكون انشاء عشر ورفات من حر اللفظ وشريف
المعاني يسر عليه من امام ذلك ذلك النقص ، حتى
يرده الى موضعه من اتصال الكلام ثم يصير هذا
الكتاب بعد ذلك نسخة لانسان آخر فيفسر فيه الوراق
الثاني سيرة الوراق الاول ، ولا يزال الكتاب تتناوله
الايدي الجانية والامراض المفسدة حتى يصير غاطا
صرفا وكذبا مصمتا (2) .

* وقال ابو احمد المسكري : فلاحتراس من
التصحيف لا يدرك الا بعام عزيز ورواية كثيرة وفهم
كبير وبمعرفة مقدمات الكلام وما يصلح أن يأتي بعدها
مما يشاكلها ، وما يستحيل مضامته لها ومقارنته بها ،
ويمتنع من وقوعه بعدها ، وتمييز هذا مستعصب
عسر (3) .

فهذه النصوص الثلاثة متجمعة تحتوي على
العوامل التي يحدث بها التصحيف والخطأ في رواية
اللغة بناء على ذلك ، وأخطرها ما ذكره الاصمعياني من
« اتخاذ الصورة الواحدة في الكتابة للدلالة على
الحروف المتعددة » وهذا - في فهمي - نموذج للشباب
بين الحروف في الصورة .

ترتب عليه التفسير والتبديل الذي هو معنى
التصحيف والتحريف بصورة عامة تشمل هذا النموذج
وغيره من مظاهر التفسير في الكتابة .

والجاحظ يصور بمرارة واسف ما يحدث
لنصوص والمؤلفات من جنابة ونساذ بسبب تداولها
بين النساخ - ومن ذلك التحريف طبعا - وما يعانیه
المؤلف - ومثله المحقق - من مشقة اذا اراد اصلاح
ما فسد او اكمل ما نقص .

و ضمانات الاحتراس من التصحيف تلخص
- من النص الاخير - في كثرة الرواية وسعة الفهم
واليقظة لسياق الكلام اوله وآخره ، وكل ذلك - كما

قال المسكري - مستعصب عسر حتى على العلماء ،
ولا غرابة اذن في حدوث التصحيف منهم .

اما الفكرة الثالثة والاخيرة في هذه الفقرة فهي
بيان الصلة بين خطأ التصحيف والتحريف - الذي
يرجع في نشأته اساسا الى الرسم الكتابي - والبحث
في اللغسة .

ان الذي يرد على الذهن لاول وهلة ان هذا النوع
من الخطأ يتعلق بالرسم الاملائي وقصور الكتابة
العربية ، وينبغي بحثه في هذا النطاق ، ولا شأن لذلك
بدراسة اللغة التي تنجبه أصلا الى النطق لا الكتابة ،
ويتفرع على ذلك ان الخطأ الذي يوجه باحث اللغة اليه
اهتمامه هو خطأ اللغة حين تنطق ، أما الخطأ الذي
ينود للكتابة ، فيتكفل به ما سماه ابن قتيبة في كتابه
« ادب الكاتب » تقويم اليد .

ذلك امرأض وارد ، وفيه كثير من الحق ، فان
قضية التصحيف والتحريف تعود الى الرسم العربي
قبل أي شيء آخر ، ولو كان الامر مقتصر على ذلك
ما كان لها مكان في البحث عن الصواب والخطأ في
اللغة ، لكن خطأ الكتابة لم يقتصر عليها ، بل تعدى
ذلك الى اللغة المنطوقة ، وبدا ذلك في مظهرين :

الاول : ان رواية اللغة مشافهة كان لها صلة
قوية بالكتابة .

الثاني : ان قراءة الكتابة - وهي نطق - حملت
اخطاء التصحيف والتحريف في معاني الكلمات وبنياتها،
بل ومخالفة قواعد النحو أحيانا .

ان رواية اللغة بطريقة علمية منظمة بدأت نشاطها
في القرن الثاني الهجري ، وأول الرواة العلماء - فيما
هو مشهور - أبو عمرو بن العلاء (ت 154) وحماد
الرواية (ت 155) ، وقد عاصروهم وجاء بعدهم رواية
اللغة الذين يعود الفضل الى جهودهم الرائدة في جمع
التراث اللغوي القديم كله ، ومن المعروف ان هؤلاء
العلماء الرواة لم يقتصروا في رواية اللغة على ما
عاصروهم فقط ، بل رووا الكثير عن العصور التي
سبقتهم في الجاهلية والاسلام مما لم يعاصروه ، ولم
يسموا قائله ، وقد وصلهم ذلك من طرق متنوعة كان

(1) : التشبيه على حدوث التصحيف من 36 .

(2) : انظر : العيون ج 1 ص 79 .

(3) : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف من 2 .

اهمها - كما قرر ذلك الباحثون في العصر الحديث (1) - ما كان مدونا بالرسم الكتابي وما دامت الكتابة لنصوص اللغة كالت مصدرنا للرواية الشفهية التي تظاهر بها العلماء ، فقد انعكس خطأ التصحيف والتحرير بداهة على تلك الرواية الشفهية نطقا وقد اورد حمزة ابن الحسن الاصبغاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » عبارة منطقية من ارسطو تقول « كل كتابة تتشابه صور حروفها ، فهي على شرف تولد السهو والغلط والخطأ فيها ، لان ما في الخط دليل على ما في القول ، وما في القول دليل على ما في الفكر وما في الفكر دليل على ما في ذوات الاشياء » (2) ويصح فهم معنى هذه العبارة بطريقة اخرى بان نقول : ان ما في ذوات الاشياء يعكس على الفكر ، وما في الفكر يعبر عنه القول والخط يثبت التعبير بالقول ويحافظ عليه ، ويمكن الرجوع اليه حين ارادة النطق به مرة ثانية ، فاذا احتمل الخط الغلط والخطا والوهم ، ظهر ذلك في النطق .

ويؤيد هذا الفهم النظري السابق ما حدث فعلا في كتب التصحيف والتحرير ، اذ ان وصفها لتحرير العلماء وتصحيفاتهم فيما اوردته من مواقف وامثلة جاء صريح الدلالة على ان ذلك قد حدث نطقا لا كتابة ، وسماها لا رسما .

ومما ساقه حمزة الاصبغاني عن العلماء المصحفين نصا قوله :

* ابو عبيدة : روى بيت امرئ القيس :

تجاوزت احراسا واهوال معشر
على حراس لو يسرون مقتلى

اي : اظهروا ، والصواب في رواية الاصمعي (لو يسرون مقتلى) ومعناها : يظهرون .

* ابو زيد : حكى ابن دريد عن ابن حاتم قال :

انشدت الاصمعي :
(جايا ترى بلبه مسجعا)

فقال : صحفت ، وانما هو (ترى قليلة مسجعا)
ثم قال : من انشدك ؟ قلت : اعلم الناس لتفاضل عنى -
وانما عنى ابو حاتم ابا زيد .

* اللحياني : املى اللحياني (مثل استمان بدقنه) فقام اليه ابن السكيت - وهو حدث - فقال يا ابا الحسن ، انما تقول العرب (مثل استمان بدقته) لان البعير اذا رام النهوض استمان بجنبه ، فقطع الاملاء . (3) .

فالرواية والانشاد والاملاء كلها من صفات المشافهة لا من صفات الكتابة ، مما يدل على ما نحن بصدده من ان التصحيف والتحرير وان كان منشؤهما الرسم والكتابة ، فقد حمل خطأهما نطق اللغة وروايتها

ولقد سبق ان مظاهر التصحيف والتحرير تكون في تبادل الحروف المتميزة بالنقط ، او الشكل الذي يحدد نطق هذه الحروف ، ويفرق بين الصيغ ، او وضع حرف مكان آخر واحلاله محله مما يفسر نطق الكلمة ، وينتج من ذلك احيانا مخالفة بعض الظواهر النحوية وان كان ذلك قليلا .

والذي يترتب على تبادل الحروف المتميزة بالنقط في التصحيف حدوث كلمات جديدة ذات معنى مخالف لما اراده منتج النص اصلا ، وقد تكون الكلمات المجردة من التصحيف لا معنى لها على الاطلاق ، وانما هي هراء لغوي لا يفيد شيئا .

اما تغيير شكل الحروف فيترتب عليه في النطق امثلة جديدة تتدرج تحت صيغ صرفية مخالفة لما كانت عليه قبلا ، وقد تخرج عن صيغ الصرف ومقتضيات اللغة اصلا ، فيحكم عليها بالخطا ، والاول من هذين النوعين انحراف في المعنى ، والثاني انحراف لغوي في بنية الكلمات .

وتغيير الحروف غير المميزة بالنقط يترتب عليه ايضا كلمات جديدة ذات معنى مغاير لما قصده منها صاحبها الاصلي ، او كلمات مجردة البنية يحكم عليها ايضا بالخطا .

(1) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، فقد تفصل البحث كله بانها طرق نقل اللغة الى العلماء ومنها الكتابة . وساق لذلك ادلة مقنعة .

(2) التنبيه على حدوث التصحيف ص 37 .

(3) انظر : السابق ص 69 و 77 و 93 على التوالي .

وأما ما يترتب على التصحيف والتحريف من خطأ النحو ، فيبدو إذا حدث التغيير في شكل آخر الكلمة أو استخدام أداة في تركيب لغوي لا يتطلبها المعنى النحوي له ، وهذا الصنف وإن كان قليلا إلا أنه يمثل جانبا يستحق الدراسة والاهتمام .

واليك نماذج قليلة تمثل الاصناف السابقة واحتمالاتها :

أولا : التغيير في الحروف المميزة بالنقطة :

* عن أبي عمرو الشيباني قال : كنا بالرقعة فأنشد الأصمعي :

عنتا باطلا وظلما كما تمنز عن حجرة الربيض الطباء
فقلت له : إنما هي (تمتر) من المعتيرة . والعنز :
الذبح ، فقال الأصمعي (تمنز) أي : تطمن بالمنزرة ،
وهي الحربة ، وجمل يصيح ويشغب ، فقلت : تكلم
كلام النمل وأصب ، والله لو نفخت في شبور يهودي ،
وصحت إلى التناد ، ما نفعت شيئا ، ولا كانت إلا
(تمتر) (1) .

* وعن الجاحظ قال : مررت بمعلم وهو يلقي
صبيحا :

يا أبا الفياش جنسى
أخرج الفتيان غشا

لبش في الأرض آياس
شربوا أملج مشا

فقلت : بالمبرانية هذا ؟ قال : لا ، هو بالعربية ،
فلما تأملته إذا هو مكتوب :

يا أبا المباس حبسى
أخرج الفتيان عشا

ليس في الأرض أناس
شربوا أملج منسا

فقلت : أيها المعلم ، أنك ضائع بهذا البلد ، قال :
نعم ، قدور ومرزايق (2) .

ففي النموذج الأول ترتب على تغيير نقط الحروف وجود كلمتين هما (تمتر) و (تمنز) تنازع حولهما الشيباني والأصمعي ، وكلاهما صحيح لفة ومعنى .

أما النموذج الثاني فإن تغيير نقط حروف الكلمات فيه أنتج كلمات لا معنى لها حتى ظنها الجاحظ كلاما « بالمبرانية » وقدم للمعلم بسببها النصح الساخر قائلا « أيها المعلم ، أنك ضائع بهذا البلد .

ثانيا : التغيير في شكل الحروف :

* قال خلف الأحمر : أنشد المفضل للمخبل :

وإذا لم خيالها طرقت
هيني ، فمأه شئونها سجم

فقلت : إنما هو (طرفت) فلج ساعة ، ثم رجع
عنه (3) .

* قال أبو أحمد العسكري : ومما يقع فيه
التصحيف حتى شك في ذلك بعض العلماء ، فجمل
له تفسيراً آخر - روى أن النبي (ص) أتاه الملكان ،
فشقا بطنه ، ثم قال أحدهما (أيتني بالسكينة) فرواه
بعضهم (أيتني بالسكينة) بكسر السين على أنها مؤنث
(سكين) وإنما هي (السكينة) بفتح السين والكفاف
غير المشددة .

قال : وقد فسره ابن الأنباري على أنه لفة في
(السكين) وأكثر أهل اللغة لا يرفون إدخال الهاء فيها ،
وهذا ذهاب عن الصواب (4) .

ففي النموذج الأول غيرت (طرفت) إلى (طرقت)
فوجدت كلمة جديدة ، وكل منهما تختلف عن الأولى
في الصيغة الصرفية ، علاوة على ما غير من النقط
فيهما ، وكل منهما صحيحة من حيث الصيغة والمعنى .

أما الثاني فإن التصحيف بتغيير الحركات أنتج
كلمة ليست من اللغة ، وحكم عليها العسكري بأنها
« ذهاب عن الصواب » .

(1) المزهج ج 2 ص 359 - شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 93 مع اختلاف سير .

(2) محاضرات الأدباء ج 1 ص 63 .

(3) التنبيه على حدوث التصحيف ص 78 .

(4) تصحيف الحديث ص 126 .

ثالثا : التغيير في الحروف غير المنقوطة :

* روى الاصمعي بيت « أوس بن حجر »

اجون تدارك ناقتي بقرالها
واكبر ظني ان جونا سيفعل

قال ابن الاثيري : صحف الهمي ، انما هو
(تدارك ناقتي بقرالها) اي : ما دمت اطمع فيها (1).

* ورد في كتاب « دليل لغة العرب » الكلمات
الآتية والتعليق عليها .

الماس - الماذ تحريف

ببغان - ببغفلن تحريف (2)

وفي النموذج الاول واضح الفرق بين (قرى لها)
و (قراها) بسبب تغيير الباء باللام، واما الامثلة الاخيرة
فالصورة الحادثة بالتحريف صورة خاطئة لغويا ،
فالكلمات حرفتا نتيجة تغيير السين ظاء في الاولى ،
وتغيير الباء هينا في الثانية .

رابعا : ظواهر النحو في التصحيف :

* عن ابن عمرو قال : انشدت الفرزدق ويده
في يدي لابن احمر :

فاما زال سرح من معد

واجدر بالحوادث ان تكونا

فلا تصلى بمطروق اذا ما

سرى بالقوم اصبح مستكينا

(1) التنبية على حدوث التصحيف ص 74 .

(2) دليل لغة العرب ص 32 .

(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 77 .

فقال لي : ارشدك ام ادعك ؟ قلت : ترشدني ،
قال : اذا كان ممن يسرى بالحي ، فليس بمطروق
وانما هو (اذا سرى في الحي) فعلت اني افعلت ذلك ،
ونا الامر كما قال .

وهذا من التحريف لا من التصحيف (3) .

فمن الواضح ان الخطأ في الجملة جاء من
استخدام حرف الجر (الباء) في الموضع الذي
يقتضي فيه المقام حرف الجر (في) وهو خطأ يعود
الى المعاني التي ترد في النحو لاستخدام حروف
الجر في مواطنها المناسبة ، وقد هلك المسكري على
ذلك بانه من التحريف لا من التصحيف ، ويبدو ان
هذا الفهم لما يشمله التحريف من بعض ظواهر النحو
قد اتسع مداه فيما بعد حتى سوغ ذلك للصفدي في
القرن الثامن الهجري ان يورد في كتابه « تصحيح
التصحيف وتحريف التحريف » ما يشمل مظاهر اللحن
في النطق ، ولا يقتصر في ذلك على النطق المترتب
على الخطأ في الكتابة .

واخيرا :

فان الذي سوغ لنا في البحث من الصواب
والخطأ في اللغة ان نتعرض لقضية « التصحيف
والتحريف » - مع انهما يرجعان اصلا لرسم الكلمات
وكتابتها - ما تبين مما سبق عرضه من الصلة بين
الكتابة والرواية الشفهية من ناحية ، وما ترتب على
الامر من الخطأ اللغوي المنطوق في معاني
الكلمات وبنيتها الصرفية ، وبعض الظواهر النحوية .

تعليق نقد

علاء الفاسي

الأستاذ بجامعة القرويين وجامعة محمد الخامس

ان هذا البحث طريف وقيم تناول فيه الدكتور محمد عبد قضايا اللحن ، والتصحيف والتوليد والتعريب في ضوء علم اللغة الحديث .

تحدث أولا عن معنى « اللحن » في الكلام العربي والتطور الذي حدث في استعماله ونفى وسائل مقاومته ، فقد عرف اللحن أولا بمعنى الفطنة والذكاء وبالتظرف في الحديث ، حينما يخلط بالكلام الاجنبي او الكلام الذي يعتمد فيه الخطأ .

ثم اطلق اللحن على التورية وهو الذي عمل له ابن دريد كتابه الملاحن .

ثم استعمل اللحن في الخطأ في المعاني . وفيه لف الفاضل بن سلمه كتابه الفاخر « فيما تلحن فيه العامة » .

كل هذه الاطلاقات استعملت في معنى اللحن، فصلها المؤلف واستدل لها ولكنه لم يذكر تاريخ التطور الذي تحدث عنه بالمعنى الدقيق للتاريخ . وعلى كل حال فالبحث يتناول بالذات اللحن بمعنى خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصنعة في بنية لكلام او تركيبه او امرابه بفعل الاستعمال الذي يشيع اولا بين العامة ويتسرب بعد الى الخاصة .

ولا شك ان هذا اللحن امر طاريء على اللغة اذ المفروض في كلام العرب هو الصحة وما حاد عنه يعتبر خطأ .

ثم يتحدث المؤلف عن السمات التي يوصف من اجلها الكلام باللحن . ومنها الخطأ في الاضراب كتنصب الفاعل ورفع المفعول . وكذلك وضع الكلمات في غير موضعها وخطأ المعاني كقولهم خرجنا نتشره اذا خرجوا الى البساتين مع ان التنزه هو التباعد من المياه والارياض ، ومنها استعمال الطرب في الفرح فقط والحشمة في الاستحياء .

وقد اوضح المؤلف سر اعتبار هذا لحننا ، وزعم انهم لم يراعوا تطور الدلالة في الكلمة ، مع ان الكلمات ليست احجارا جامدة .

ثم حاول تفسير الخطأ في احوال بعض الحروف محل بعضها كقولهم دخل في غمار الناس ، مع ان العرب تقول دخل في خمار الناس - بالخاء لا بالعين - بالتطور الصوتي . وبعد ان حدد عشرة امثلة تتعلق ببنية الكلمة قال : ان الحكم عليها بالخطأ جاء في ضوء التواعد الصرفية ، ثم اشار الى نهاية العلماء بهذا النوع من الخطأ .

ثم ذكر امثلة مشرة ، لنماذج الخطأ في التركيب لاهراب كقولهم شكرت لك ونصحت لك ، والصواب شكرتك ونصحتك ، وبين ان الكثير منها يتعلق بتأليف التركيب العربي والامر الذي استقر عليه ، وهو من مباحث علم النحو . وقد اكد ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية في دراسة (لحن العامة) ايراد لما حدث في اللغة الفصحى ، ويكون متصورا على اوساط العلماء وان اطلقوا عليهم العامة ، بخلاف النماذج الاخرى فانها همت مختلف الطبقات .

وقد اوضح صعوبة الوصول الى معرفة تاريخ بدء اللحن وتطوره في العصر الجاهلي ، وان انتقد النحاة بعض المبررات الجاهلية لمغايرتها للقواعد النحوية والصرفية الموضوعتين من بعد .

ولكن اللحن تردد عند العرب مع ظهور الاسلام على انه كان معروفا . وفي عهد الامويين اصبح اللحن ظاهرة خطيرة في استعمال اللغة ، وترتب عنها نشاط علمي متنوع . جاء بامثلة منه كالرحلة للبادية وتأليف الكسائي كتابه الذي لا يزال موجودا بين يدينا (ما لحن فيه العامة) . واستمرت موجة اللحن قوية مندفعة ، فالقرن الثالث اقل فصاحة من القرن الثاني واكثر لحنا . وفي القرن الرابع وصل اللحن الى مداه .

فماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

نظر العلماء الى هذه الظاهرة من جهة الخطأ ، فقاوموه بعنف ، وبدأت مقاومتهم منذ القرن الثاني ، وهنا جاء بقائمة لاسماء العلماء الذين كتبوا في تقويم اللحن ، تصل حد الثلاثين كتابا .

ثم لاحظ ان هذه المقاومة كانت في القرون الثلاثة الاولى قوية ثم ضعفت بعد .

وقد اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، دون ان يحاولوا استشهادات جديدة وسماحات من العرب غالباً .

وتصدوا غالباً بالعامة الناس العاديين بدليل قولهم الخواص او الخاصة . وجهودهم كلها تنصرف الى تنقية اللغة الفصحى .

لا وجود في هذه الكتب لحديث عن اللحن فكرة وموضوعاً .

ثم يتساءل هل نجحت هذه الجهود التي قام بها اولئك العلماء ؟

وفي فصل خاص يحلل هذا الموضوع ارادة الجواب عن السؤال ، ويقول ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير ، لانهم نظروا اليه من زاوية الخطأ وامتبروه انحرافاً ولم يأخذوا في الاعتبار قوة الاستعمال وقهره والتطور الذي يمكن تربيته على ذلك . مع ان لحن النحويين انفسهم في الاستعمال دلالة على خطورة الاستعمال . والخلاصة انه يؤكد في النهاية ان ما اطلق عليه النحاة منظور اليه من زاوية الخطأ ، وقبل ان يبين مدى نجاحهم فيما قصدوا اليه ، جاء بفصل في :

معنى التصحيف والتحرير وملاقتهما باختلاف المعنى والبنية والاهراب ، وانتهى الى القول بان مجال البحث في الكلمتين واحد ، وهو البحث عن الخطأ الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطأ الاملائي .

ولم تستعمل الكلمتان دائماً في مكان واحد ، بل في معان لها صلة بالخطأ ، من جهة :

1 - من جهة التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحرير .

2 - سبب وقوع ذلك في الكتابة العربية خاصة .

3 - علاقة مظاهر الخطأ التي ترتبت على ذلك .

وقد فصل هذه الجهات الثلاث وارجع السبب في ذلك الى الخط العربي الذي لم يكن منقوطة ولا مشكولا . ثم ميزت حروفه بنقط وحركات منفصلة وتابعة للحروف العربية ، ويسأل كذلك عن هذه

السئلة علماء اللغة الذين يعطون لانفسهم حرية رواية الكلمة كما فهموها من السياق .

فالمسؤول اذن الرسم العربي ، والنساخت ووهم العلماء .

وبعد ان اتى بنماذج تمثل الاسباب السابقة ، عقد فصلا لمقاومة التصحيف والتحريرف باسلوب الرواية وتنقية الاخطاء فذكر تطور ذلك على ما ياتي :

1 - ضبط الكتابة العربية بالنقط والشكل .

2 - ضرورة المشافهة في رواية اللغة .

3 - تنقية الاخطاء بجمعها في مؤلفات .

وقد جاء بانتقادات للعلماء على هذه الاسباب الثلاثة وعدم كفايتها لوفاية اللغة من التصحيف والتحريرف .

ولاحظ ان هذا الجانب الذي هو تنقية اللغة بجمع ما صحف وحرف في مؤلفات جانب دراسي بدأ في القرن الرابع الهجري . كتب فيه المؤلفون الذين لم يكتفوا بنماذج التصحيف بل اضافوا الى ذلك تناول قضية التصحيف والتحريرف من حيث نشاتها وعواملها .

ثم تسائل : اكان هذا المجهود حلا للقضية ؟

وقبل الجواب من ذلك فقد فصلا :

لمعنى التوليد في الالفاظ ومصادره اللغوية .

1 - ثم جاء بعرض تاريخي للمولد من حيث استعمال اللفظ ودراسة العلماء لمظاهره .

2 - وبالتحديد النظري لمعنى التوليد كما رواه الاقدمون .

3 - وتحدث عن مصادر التوليد في الالفاظ ودراسة العلماء لنماذجه .

وبعد ان فصل هذه الموضوعات تسائل ايضا عن :

مدى توفيق العلماء في مباحث التوليد ؟

وقبل الجواب منه ايضا انتقل الى بحث عن :

حركة التمريب وتطورها استعمالا ودراسة .

وطبعا فانه يعني بالتمريب معناه الاصيل الذي هو ادخال كلمة اعجمية في الكلام العربي وتبينها ، لا بالمعنى الحديث الذي نستعمله حينما نطالب بتمريب التعليم والادارة مثلا .

وقد بين في هذه الفقرة :

1 - الصورة العلمية لحركة التمريب في الكلام العربي في عصر الاستشهاد

2 - الصورة العلمية لدراسة العرب في الكلام العربي بمد عصر الاستشهاد .

وقد اجاد في بحث الموضوعين وما تفرع عنهما وجود الدخيل في القرآن ، وجاء بقائمة المؤلفات المهمة في موضوع التمريب .

ولاحظ ان التأليف في هذه الظاهرة تاخر نسبيا .

وضمنت فكرة التمهيد لذكر الكلمات العربية بمقدمة علمية تتناول الافكار الخاصة بهذه الظاهرة .

3 - كلمة الدخيل جملة عنوانا لبعض الكتب في موضوع التمريب .

4 - من المؤلفات كتب في التصريب وضعت أخيراً الأمر الذي يدل على أنه لا يريد تناول التصريب في القديم فقط .

- أما الجانب اللغوي فقد عرض فيه نظراً لاقدمين للمعرب وجهودهم في إخضاعه لمسلك الصيغ العربية .

وقد فصل القول في هذا الجانب واتى بتدقيقات مهمة .

ثم تساءل ماذا يستنتج من موقف علمائنا الاقدمين آراء النقل من اللغات الأجنبية ؟
يتلخص ذلك في امرين :

1 - قصر المعرب على العرب وحدهم الذين عاشوا في فترة زمنية خاصة .

2 - فرض قواعد الصيغ العربية على استعمال المعرب من لغات متعددة .

ولتقييم ذلك أحال المؤلف على القسم الأخير الذي يجب فيه من الأسئلة المتقدمة .
وفي هذا القسم تناول رأي علم اللغة الحديث من :

1 - اللحن بين محكم القواعد وتطور الاستعمال

2 - التصحيف والتحريف من مظاهر الرسم العربي .

3 - الألفاظ المولدة في ضوء تطور اللغة .

4 - التصريب بين قبود النحاة وحاجة الاستعمال .

وقد فصل آراء العلماء اللغويين المعاصرين في هذه النقط وبين ميزة التسامح التي ظهروا بها آراء المسألة الأولى ، وادلى بآراء اللغويين عرب واهاجم ودعا الى :

1 - تنحية الفكرة القديمة عن المجموعة المدونة فيما لحن فيه العوام واعتبارها تطورا يهدينا الى دراستها في مراحل استعمالها

2 - النظر في هذه المادة ودراستها مع غيرها من النصوص الموثقة في عصرها ليعلم مدى انتشارها في الاستعمال فيقبل منها ما تحقق له ذلك . وتناول بعد ذلك امر التصحيف والتحريف وأبدى إعجابهم بجهود العلماء فيها وقال : ان العلماء بعد ان عرفوا الضعف الموجود في الرسم العربي لم يحاولوا تغييره ، وقال ان الرسم العربي شأن غيره في اللغات الأخرى قد يشتمل على عيوب ، وهذه العيوب ينبغي احتمالها والرضا عنها ارتكاباً لأخف الضررين ، واستدل على ذلك بنص للعالم اللغوي فنديس .

أما من المولد فقد اعتبر ان الألفاظ المولدة مظهر لتطور اللغة .

وان موقف النحاة من هذه الألفاظ قد تحكمت فيه اعتبارات اعترفوا بها ثم استسلموا لها ، وينتقد عليهم خروجهم عن واجب الاستقرار الى الحكم بالإباحة أو المنع على الألفاظ واعتبر ان الحق المطلق لبعض الناس في ظروف معينة ينبغي ان يعمم على كل جماعة وكل عصر فيقبل ما ولدوه من كلمات دعت اليها حاجة اللغة وهدت اليها سليقتها .

ثم انتهى باستخلاص نظرة المحدثين للعوامل الطارئة على اللغة .

1 - اعتبار التطور في اللغة من اساس النظرية الحديثة للمستوى اللغوي ، وتفسير هذا التطور حسب رأي - فيرس - التغيير المستمر بين عناصر اللغة .

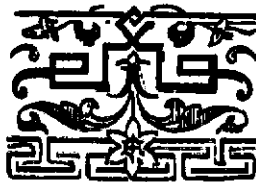
2 - لا تتطابق الكتابة لاية لغة مع نطق هذه اللغة فنحن ، كما يقول فنديس ، لا نكتب كما نتكلم بل نكتب كما يكتب غيرنا .

3 - ان تغير الظروف الاجتماعية ينمكس تأثيره على الالفاظ من حيث اختفاء بعضها واندثاره وحدث الاضر واستعماله .

4 - نقل الالفاظ من اللغات الاجنبية بخضع للحاجات الاجتماعية المتجددة للناطقين انفسهم ، وهذا امر عادي لا خطر فيه .

اعتبر ان هذا الكتاب يكون بحثا قيما خاضعا لمنهج البحث اللغوي الحديثة متسلسلا في افكاره وموضوعاته وفي الاستنتاجات المترتبة عليها ، وانه استقرأ باختصار مباحث الاقدمين عن العوامل الطارئة على اللغة بكيفية لم يسبق جمعها في كتاب حديث ، ثم اعاد تقييمها على ضوء آراء علماء اللسانيات ، ومباحث العرب التي شغلت اوقات الجامع العربية ازيد من نصف قرن ، ولم يتقدم المؤلف باقتراحات تلقائية في تجديد اللغة خارجة عما ورد على السنة الباحثين المجمعين في الشرق العربي . ويظهر ان المؤلف لم يطلع على بعض البحوث التي قام بها المغاربة المختصون لاسيما في اصلاح الرسم العربي الذي وضعه الاستاذ الاخضر والذي يسمدني ان اقول مرة اخرى انه يصلح من ميوب الرسم العربي الشيء الكثير ، كما انه فيما يظهر لم يطلع على جهود مكتب التعريب المغربي ومحاولته لاحصاء كلمات الحضارة واستقرائها والاكتفاء بما هو موجود منها في كتب اللغة او في المجتمعات العربية عن اتخاذ الدخيل الذي ينزع اليه عند عدم وجود الاصيل .

والكتاب بهذه الصفة جيد وجدير لقبوله من اللجنة المحترمة واجازته ، وبالمقارنة مع الباحث الاخرى وآراء المقررين فيها يقع التفاضل وبشم الترجيح ، وان كنت اوصي بكل اخلاص بمجازاة هذا المؤلف على جهده المشرف وطبع رسالته .



الأضداد في اللغة

الأستاذ حسين محمد (القاهرة)

ونحن ننشر في هذا العدد من مجلتنا القسم الأول من البحث (حول الاختلاف في مفهوم الأضداد) مرجئين إلى العدد المقبل بعون الله القسم الثاني حول (جمع الأضداد وتدوينها) :

هذه الألفاظ جميعا تتحدث عن الأبل وما تعلق بها ، فتعطينا الرسائل اللغوية على الموضوعات . أو يكون ذلك الطابع من المصدر السدى وردت فيه ولفظ الانظار ، كان تكون في القرآن أو الحديث ، فتعطينا رسائل غريب القرآن ، وغريب الحديث . أو يكون ذلك الطابع من ظاهرة لغوية تغلب عليها كان تكون هذه الألفاظ مهمولة ..

ومن الضرب الأخير « الأضداد » . فقد كان الذي لفت الأنظار إليها ما تتحلى به من ميزة خاصة ، إذ ترد بصورة واحدة ، ولكنها تدل على معان يتقابل منها اثنان تقابلا تاما ..

ولم يكن تدوين الأضداد ليما نعرف من الرسائل اللغوية الأولى ، ولكنه تأخر عنها قليلا . وفي القرن الثاني تنبه اللغويون إليها ، فشرعوا يلتقطونها ، ويشيرون إليها ، ويتحدثون عنها .

وكانت الثمرة الطبيعية أول تدوين للأضداد في اللغة العربية . وكانت هذه الثمرة الأولى باكورة عدة ثمار : جمعت الأضداد أو درستها . وحول هذا الثمار ندور في الصفحات الآتية : متاملين ، ومتذوقين ، ومقدرين ..

ودعائي إلى الله أن يمنحني التقصد فلا أجور ، والقدرة فلا أمجر ..

لا يماري انسان اتصال بالصرب أو ادبهم أو ثقافتهم أدنى اتصال انهم يرتبطون بلفتهم ارتباطا قل ان نرى مثيلا له في الامم الأخرى ، وان هذا الارتباط جعلهم يلتزمون بها ، ويشعرون بكل تغيير - مهما كانت تفاهته - يجري عليها ، ويحاولون المحافظة عليها ما وسمتهم المحاولة ..

وكانت الثمرة على النحو واللغة . فقد اخذ العرب يتحدثون في شيء من مسألتهما منذ وقت مبكر ، لسنا على يقين منه ، بل ربما رجع إلى ما قبل الاسلام ، كما تنبئ بعض اخبارهم . ولست أريد ان أضرب في وادي الأوهام ، أو أركن إلى الظنون . فما اتحدث عنه في هذا الكتاب فني عن ذلك ..

فلا جدال ان علماء بالعربية اخذوا يظهرون في المجتمع ، ويحملون هذه الصفة ، في القرن الثاني ، بل ربما لا اغالي اذا قلت أواخر القرن الأول . ولم يزد جهد الأولين من هؤلاء « العلماء بالعربية » على مدارس تلاميذهم ، ومناقشتهم . ثم جاء خلف لم يرضوا بهذا الجهد وحده ، وطمحوا إلى « التدوين » : تدوين ما قال شيوخهم ، وما وصل إليه جهدهم الخاص ..

وكانت الثمرة - في المجال اللغوي الخاص - رسائل تحاول ان تجمع الألفاظ لغوية ذات طابع خاص . ولا يهم ان يكون ذلك الطابع من معناها ، كان تكون

تصريف الأضداد

الأضداد ، ولم يزد عليه غير شيء من البسط والشرح والتمثيل والتفريع . قال أبو علي قطرب : « الكلام فى الفاظه بلفة العرب على ثلاثة أوجه :

1 - فوجه منها - وهو الأعم الأكثر - اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، وذلك للحاجة منهم الى ذلك . وذلك قولك : الرجل ، والمرأة ، واليوم ، والليلة ، وقام ، وقعد ، وجاء ، وذهب . اختلف اللفظان لاختلاف المعنيين . وهذا لا سبيل الى جمعه وحصره ، لان أكثر الكلام عليه . وقد نشر من هذه العبارة الأخيرة أن قطربا لم يسمع بمحاولة الخليل بن أحمد الفراهيدي جمع اللغة فى كتاب العين ، والحق أن القدماء يقولون أن كتاب العين لم يرد الى البصرة من خراسان الا فى زمن متأخر من وفاة قطرب ..

2 - والوجه الثاني اختلاف اللفظين والمعنى متفق واحد . وذلك مثل مير وحمار ، وذئب وسيد ، وسمسم وتعلب ، واتى وجاء ، وجلس وقعد . اللفظان مختلفان والمعنى واحد .. وكانهم انما أرادوا باختلاف اللفظين ، وأن كان واحد مجزئا ، أن يوسعوا فى كلامهم والفاظهم ، كما زاحفوا فى اشعارهم ليتوسموا فى أبيتها ، ولا يلزموا أمرا واحدا ..

3 - والوجه الثالث أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، فيكون اللفظ الواحد على معنيين فصاعدا . وذلك مثل الأمة يريد الدين ، وقول الله : « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله » منه .. والأمة : القامة ، قامة الرجل . والأمة من الامم .

ومن هذا اللفظ الواحد الذى يجيء على معنيين فصاعدا ما يكون متضادا فى الشيء وضده . وعلى هذه الصورة وصل قطرب الى لغرضه ، إذ أبان أن هذا المشترك من الكلمات - الذى ذكره سيبويه - نستطيع أن نجد تحته فئتين من الكلمات : فئة تختلف معانيها مثل الأمة ، وأخرى يرداد التخالف الى أن تتضاد ، وهي « الأضداد » التى ألف من أجلها الكتاب ..

ان من أقدم الامور التى تطلع اليها علماء اللغة العربية الاولون التفرقة بين الأنواع التى يمكن أن تنقسم اليها الكلمة . فالقدماء يكادون يجمعون أن علي بن ابي طالب اول من تحدث فى قضايا نحوية ، ويذهب بعضهم انه اكتشف ان «الكلام كله اسم وفعل وحرف ..» (1) .

ولست فى صدد دعم هذا الكلام او دحضه ، انما يفتنى ان القدماء كان فى خلدكم ان تقسيم الكلام العربى كان اول قضية نحوية . واذن فغير غريب ان يكون من أقدم القضايا اللغوية تقسيمات اخرى تتكلمة ..

واقدم ما يفتنى من هذه التقسيمات ما أورده سيبويه فى صدر كتابه ، دون أن يبين انقله عن أحد شيوخه أم كان من ابتكاره . والتقسيم الذى أورده ثلاثا أيضا يمكن ان أضمه على النحو التالي .

النوعان من كلامهم :

1 - اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ...
نحو جلس وذهب .

2 - اختلاف اللفظين والمعنى واحد ...
نحو ذهب وانطلق .

3 - اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ...
نحو : وجدت عليه : من الموجدة ،
وجدات : اذا اردت وجدان الضالة ..» .

والنوع الثانى بالنوع الثانى ما سماه اللغويون (النوع الثالث) والنوع الثالث ما سموه المشترك ..

والنوع الثالث ما دونه سيبويه « كتاب » النحاة فى بيان ما كان فى كلامهم من اللفظ الواحد والمعنى الواحد . وكان سيبويه قد كان طبيعيا ان نجد هذا التقسيم فى كلامهم (2) . وكان طبيعيا بل أوغل فى ذلك . فلو أن هذا القول - ان نجد هذا التقسيم فى صدر كتابه الذى ألفه فى

(1) نزهة الألباء 2 .

(2) سيبويه 1 .

المصدر : الأضداد لابن فارس 96 ، 201 ، والمزهر للسيوطى 1 : 388 - 9 .

التضاد ، اذ كان كل متضادين مختلفين ، وليس كل مختلفين ضدين .

الاختلاف في وجود الاضداد

وقد اختلف موقف اللغويين القدماء من هذا النوع من الالفاظ . فارتضى جماعة منهم وجودها ، واعترف بها ، وتحدث عما يندرج تحتها من الفاظ ، وعلمها احيانا . وكانت هذه الجماعة اسبق في الظهور من معارضتها ، اذ كان منها ابو عمرو بن العلاء والخليل ابن احمد ويونس بن حبيب وتلاميذهم . واستمر المنتسبون اليها في البقاء الى يومنا هذا . اما الجماعة الاخرى فاعترضت على الاضداد ، وانكرتها . ولا نعرف من انتهى اليها من القدماء غير عبد الله بن جعفر المعروف بابن درستويه (7) . وكثر اتباعها في العصر الحديث . فكان منهم عبد الفتاح بدوي كاتب مقالة « ضدان » في دائرة المعارف الاسلامية (مادة اضداد) وكان منهم اغلب المستشرقين ، الذين كتبوا المقالات والرسائل الصغيرة في رفض الاضداد .

وبسبب هذا الاختلاف ، اضطر مؤيدو الاضداد الى الدفاع عن وجودها ، والرد على ما قاله المعارضون . ولعل اهم من قام بهذا العمل احمد بن فارس ، وابن سيده ، ومحمد ابن القاسم الانباري . اما الاولان فقد وجدت جندهما الدفاع . واقامه ابن سيده على الجدل العقلي ، فقال لشيخ منكر للاضداد (8) : « هل يجوز منك ان تجيء لفظتان في

وانقل هذا التقسيم من كتاب قطرب الى كتاب اخر في الاضداد ، هو الذي الفه ابو بكر بن الانباري (4) . فقد اورده هذا برمته في مقدمته ، وازاد اليه بعض التوضيح والاعتراض . فقد روى ان ابن الامرابي اعترض على المترادفات ، وانكرها ، وامن ان كل كلمة منها لها معنى ليس في اختها ، احيانا نعرفه واحيانا لا نعرفه . وارتضى ابن الانباري رأي ابن الامرابي ودعمه بالحجج التي تؤيده . وصرح ابن الانباري ان الوجهين الاولين من الكلام ، اكثر كلامهم » ، اما الاضداد فانفق هو وقطرب على قلتها . .

واذا نظرنا الى حديث قطرب السابق عن الاضداد وجدناه موجزا ومبهما ، لا يعطينا تعريفا شاملا دقيقا لها . وقد حافظت الكتب بمد قطرب على هذا الابهام . فاكتفى ابو حاتم السجستاني بان قال في مقدمة كتابه : « ضد الشيء : خلافه وغيره » . وقال ابن الانباري في وصف كتابه (5) : « هذا كتاب ذكر الحروف التي توهمها العرب على المعاني المتضادة فيكون الحرف منها مؤيدا عن معنيين مختلفين » .

وكان ابو الطيب اللغوي هو الذي ازال كل ابهام عن اللفظ ، حين عرفه في صدر كتابه فقال (6) : « الاضداد جمع ضد . وضد كل شيء ما نأفاه ، نحو البياض والسواد ، والسخاء والبخل . . وليس كل ما خالف الشيء ضدا له . الا ترى ان القوة والجهل مختلفان ، وليس ضدان ، وانما ضد القوة الضعف ، وضد الجهل العلم . فالاختلاف اهم من

(4) 6 - 8 .

(5) 1 .

(6) 1 .

(7) ذكر الجواليقي في شرح ادب الكاتب ان ثعلبا انكر الاضداد ، وقال : « ليس في كلام العرب ضد . .

لانه لو كان فيه ضد لكان الكلام محالا ، لانه لا يكون الابيض اسود ولا الاسود ابيض . وكلام العرب - وان اختلف اللفظ - فالمعنى يرجع الى اصل واحد » (ادب الكاتب 177)

والغريب ان تلميذه ابن الانباري لم يذكر ذلك ، بل اكثر من الرواية في كتابه منه الى درجة تجعل المرء يوقن ان ثعلبا من القائلين بالاضداد . وروى منه ما يدل على ان ثعلبا اعلن ان اللفظ قد يفيد مقابل معناه ، لعله من العلل . قال : « قال ابو العباس (ثعلب) : انما جاز ان يقع الظن على الشك واليقين ، لانه قول بالقلب . فاذا صحت دلائل الحق ، وقامت اماراته كان يقينا . واذا قامت دلائل الشك ، وبطلت دلائل اليقين ، كان كذبا . واذا اعتدلت دلائل اليقين والشك كان على بابه شك ، لا يقينا ولا كذبا » (الاضداد 16) .

(8) المخصص 13 : 259 .

وأما ابن الأنباري فقد تناول واحدا من أهم آراء المنكرين للأضداد ورد عليه . بل لعله أهم رأي لهم ، إذ صدر عن راسم ابن درستويه ، واستفلكه جماعات متنوعة .

ولما كانت كتب المعارضين القدماء لم تصل إلينا، كنا مضطرين إلى الاعتماد على حكايات غيرهم عنهم ، وما تساقط إلينا من أقوالهم ، في تصور آرائهم . وتؤكد لنا هذه الحكايات أن المعارضين رفضوا الأضداد جملة ، وانكروا وجودها في اللغة . قال أحمد ابن فارس (12) : « وانكر ناس هذا المذهب وان العرب تأتي باسم واحد لشيء وضده » . وقال السيوطي مصورا لموقف ابن درستويه ، الذي يمد رأس المعارضين القدماء (13) : « قال ابن درستويه في شرح الفصيح : النوء : الارتفاع بمشقة وثقل ، ومنه قيل للتكوب : قد ناه : إذا طلع . وزعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضا ، وأنه من الأضداد . وقد أوضحنا الحجة عليهم في ذلك في كتابنا في إبطال الأضداد ؟ فاستفدنا من هذا أن ابن درستويه ممن ذهب إلى انكار الأضداد ، وان له في ذلك تأليفا » .

وعندما نتبع الأقوال التي اتى بها المنكرون لدعم رأيهم لا نجد فيما بين يدينا من مراجع غير أقوال قليلة لا تدل على حقيقة موقفهم دلالة كافية . وأهمها الرأي الذي رد عليه ابن الأنباري ، وجاء ابن درستويه في شرح الفصيح حين قال (14) : « إنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني . فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، أو أحدهما ضد للآخر لما كان ذلك إبانة بل تعمية وتفظية .. » .

وتتقف هذا القول من ابن درستويه فشان من الناس . أبدا بالفئة المتأخرة في الوجود ، إذ عاشت بيننا في العصر الحديث ، وتقبلت القول في نيسة حسنة ، ودافعت عنه في مواجهة بعض ما وجه إليه

اللغة متفقتان لمعنيين مختلفين ؟ (يشير إلى المشترك) فلا يخلو في ذلك أن يجوره أو يمنعه . فان منعه ورده ، صار إلى رد ما يعلم وجوده وقبول العلماء له ، ومنع ما ثبت جوازه ، وشبهت عليه الألفاظ ، فانها أكثر من تحمى وتحصر ، نحو « وجدت » الذي يراد به العلم ، والوجدان ، والغضب ، و « جلست » الذي هو خلاف قمت ، و « جلست » الذي هو بمعنى اتيت نجدا (وتسمى جنس) . فاذا لم يكن سبيل إلى المنع من هذا ، ثبت جواز اللفظة الواحدة للشيء وخلافه . وإذا جاز وقوع اللفظة للشيء وخلافه ، جاز وقوعها للشيء وضده ، إذا لُذض ضرب من الخلاف ، وان لم يكن كل خلاف ضدا ..

ولم يلجأ ابن فارس إلى المنطق، والجدل العقلي، في دفاعه عن الأضداد . وإنما اعتمد في أحد رأييه على طبيعة اللغة العربية . فقال (9) : « ومن سنن العرب في الأسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد، نحو الجون للأسود ، والجون للابيض » . فالأضداد عنده واحدة من ظواهر اللغة العربية مثل الترادف . واعتمد في رايه الثاني على الرواة الذين نقلوا لنا الأضداد وموقفنا منهم . فقال يصف رأي المعارضين (10) : هذا ليس بشيء ، وذلك أن الذين رووا أن العرب تسمى السيف «مهندا» والفرس «طرنا» هم الذين رووا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد » فابن فارس يوجب أن نوحده موقفنا من هؤلاء الرواة . فان شككنا فيما رووا من الأضداد وجب علينا أن نشك في بقية رواياتهم اللغوية ، وذلك أمر مستحيل . فان وثقنا بما رووا من غير الأضداد، كان واجبا أن نشك بما أوردوه منها . والحق أن ابن فارس كان أكثر توفيقا في دفاعه عن الأضداد ، وأقرب إلى طبيعة اللغة وما تفرضه من مناهج . ويؤسفنا ألا نعرض على كتابه الذي الفه في الدفاع عن الأضداد ، ووصف موقفه من مذهب المعارضين ، في قوله (11) : « وقد جردنا في هذا كتابا ، ذكرنا فيه ما احتجوا به ، وذكرنا رد ذلك ونقضه » .

(9) الصاحبى 97 .

(10) الصاحبى 98 .

(11) الصاحبى 98 .

(12) الصاحبى 98 . المزهري 1 : 387 .

(13) المزهري 1 : 396 .

(14) المزهري 1 : 385 . أضداد ابن الدهان 5 .

تحاول ان تهدف القاعدة التي قامت عليها الاضداد كما استهدف قول ابن درستويه السالف ، بل سير في اتجاه مخالف بعض المخالفة ، يجعلنا نستطيع ان نعتد عليها ونستفيد منها في موضع آخر . ولذلك نرجو عرضها والحديث عنها الى ذلك الموضع ، وننقل الى المحدثين من الشرقيين والمشرقيين .

فيبرز امامنا عبد الفتاح بدوي اكثر الرافضين للاضداد تطرفا وتوسعا في رايه ، اذ انكرها انكارا بانا ، واعين : « واننا لتتحدى الدين يرممون ان في اللغة اضدادا ونباهلهم ، بجميع كلمات اللغة العربية ، ان ياتونا بلفظ واحد له معنيان متقابلان بوضع واحد . فان لم يفعلوا ولن يفعلوا - فليس في اللغة تضاد » . وقد اتخذ عبد الفتاح بدوي من قول ابن درستويه اساسا ثم اقام عليه عنته في هذا النفي المطلق للاضداد . قال : « ينبغي الا يعزب عنا ان التضاد مناف لطبيعة اللغة ، وانه لا يسهل التفاهم بين الناس . فمن الصعب ان تقبل ان المعاني الاولية المضادة يتفاهم الناس عنها بلفظ واحد . والصعوبة التي تنشأ من التضاد اكبر جدا من التي تنشأ من الاشتراك » . ورد على ابن الانباري قائلا : « واذا قيل : ان القرائن توضح المراد ، كان هذا تسليما حقا بمنافاة التضاد لطبيعة اللغة ، لان الاعتماد على القرائن ليس من طبيعة اللغات في سداحتها ، وانما هو طور آخر فوق » . ثم قسم عبد الفتاح بدوي الاضداد الى طوائف ، واتبع كل واحدة بما يبطلها في نظره . واعان ان امثالها موجود في اللغات المختلفة ، واتي بشواهد من اللغة الفرنسية .

وقد اجملت دائرة المعارف الاسلامية والدكتور منصور فهمي الادلة التي اعتمد عليها المستشرقون في انكار الاضداد ، فكانت كما يلي :

1 - كانت معظم الكلمات التي اوردها مؤلفو الاضداد معروفة عند العرب بمعنى واحد فقط .

اما المعنى الآخر المضاد له فلم يرد الا في روايات نادرة ، بل روايات جديدة بالشك . ولا ريب ان بعض الالفاظ التي اوردها كتب الاضداد من هذا القبيل ، مثل ذلك ما

من نقد على المصور . قال عبد الفتاح بدوي (15) : « ينبغي الا يعزب عنا ان التضاد مناف لطبيعة اللغة ، وانه لا يسهل التفاهم بين الناس . فمن الصعب ان تقبل ان المعاني الاولية المتضادة يتفاهم الناس عنها بلفظ واحد . والصعوبة التي تنشأ من التضاد اكبر جدا من التي تنشأ من الاشتراك . واذا قيل : ان القرائن توضح المراد كان هذا تسليما حقا بمنافاة التضاد لطبيعة اللغة ، لان الاعتماد على القرائن ليس من طبيعة اللغات في سداحتها . وانما هو طور آخر فوق ذلك » .

اما الفئة الاولى في الوجود فكانت مربية . ولم تقبل القول الا لتستند اليه في الطعن على العرب ، اذ سلمت بصحة القول وصحة وجود الاضداد في مان واحد ، واقامت عليهما من الاحكام ما يتسق مع ما ربه الحاقدة . قال ابن الانباري (16) : ويظن اهل البدع والزيغ والازراء بالعرب ان ذلك كان منهم لتقصان حكمتهم ، وقلة بلافتهم ، وكثرة الالتباس في محاوراتهم ، وعند اتصال مخاطباتهم . فيسالون عن ذلك ، ويحتجون بان الاسم منبئ عن المعنى الذي تحته ودال عليه ، وموضع تاويله . فاذا امتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان لم يعرف المخاطب ايها اراد المخاطب ، وبطل بذلك معنى تعليق الاسم على المسمى »

وكان رد ابن الانباري على هذه الفئة الشعبية بقوله (17) : « احدهن ان كلام العرب يصحح بعضه بعضا ويرتبط اوله باخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه ، واستكمال جميع حروفه . فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لانها بتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية احد المعنيين دون الآخر ولا يراد بها في حال التكلم والاخبار الا معنى واحد . . ومجرى حروف الاضداد مجرى الحروف التي تقع على المعاني المختلفة وان لم تكن متضادة ، فلا يعرف المعنى المقصود منها الا بما يتقدم الحرف ويتاخر بعده مما يوضح تاويله » .

وتساقط البنا من اقوال منكري الاضداد ما يكشف عن ادلة اخرى لهم . ولكن هذه الاقوال لا

(15) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اضداد .

(16) الاضداد 1 .

(17) الاضداد 3 .

ما رواه ابو زيد (18) : « تصدق الرجل : اذا اعطى صدقته . وبعض العرب يقول : تصدق : سال ، والجيد : تصدق : اعطى » . ولكن يجب الا يغيب عن بالنا ان القديما انفسهم - وجامعي الاضداد - هم الذين تقدموا مثل هذا اللفظ ، وابانوا الرديء والجيد منه ، كما نرى في النص السابق ، ومقابله عند ابن الانباري (19) : « يقال : قد تصدق الرجل : اذا اعطى ، وهو المعروف المشهور عند اكثر العرب ، وقد تصدق : اذا سال وهو القليل في كلامهم » وعند ابي الطيب (20) : « قال ابو حاتم : والمعروف عند العرب تصدق : اذا اعطى الصدقة » . وامثال هذا التقدير كثيرة عند ابي حاتم وابن الانباري وابي الطيب خاصة ..

2 - يعوز اكثر ما ذكروا من الاضداد الشواهد الموثوق بها ، حتى قال جيز Gliese انه لم يعثر في الشعر القديم الا على 22 لفظا من الاضداد . وذهب هرشفاند الى ابعاد من ذلك . فعقب على قول جيز ملنا (21) ان هذا العدد يمكن ان تقلل منه لو اردادت معرفتنا بالمعاني الاصلية لهذه الالفاظ . وكان ابن الانباري هو الذي لفت المستشرقين الى الشك في الاضداد التي لا يوجد شواهد عليها ، اذ فعل ذلك في الحميم قال (22) : « قال بعض الناس : الحميم من الاضداد ، يقال الحميم للحار ، والحميم للبارد . ولم يذكر لذلك شاهدا ، والاشهر في الحميم الحار .. » . واعلم ان الشاهد هو الدليل على صحة التضاد حين قال (23) : « قال بعض اهل اللغة : الضد يقع على معنيين متضادين ، ومجره مجرى الند . يقال فلان ضدي : اي خلافي ، وهو ضدي : اي مثالي . قال ابو بكر (ابن الانباري) : وهذا عندي

قول شاذ لا يعول عليه ، لان المعروف من كلام العرب : العقل ضد الحق ، والايمان ضد الكفر . والذي ادعى من موافقة الضد للمثل لم يقم عليه دليلا تصح به حجته » .

ولكن الحق ان القديما اوردوا كثيرا من هذه الالفاظ ، او كثيرا من المعاني المتضادة ، مهملة . فلم يوردوا لها شواهد البتة ، او اوردوا منها ما يشهد للمعنى المعروف وتركوا المعنى غير الشائع بدون شواهد . مثال ذلك دهور ، وزجور ، ونهوز ، وبحتر ، في اضداد قطرب (24) ، وعنه روتبه بقية كتب الاضداد دون ان تكثرث لاضافة الشواهد (25) . والامر نفسه نجده في اضداد الاصمعي (26) ، وابي حاتم (27) ، وابن السكيت (28) ، وغيرهم . ولكننا يجب ان نحترس هنا ايضا ، فان القديما لم يكونوا يشعرون بوجود ايراد الشواهد على كل ما يسمعون ويروون ، وخاصة اذا كان اللفظ قد سمعوه في غير شعر . بل انهم تخففوا في بعض الاحيان من بعض الشواهد التي كانت بين ايديهم ، كما فعل ابو حاتم عندما حذف بعض شواهد الاصمعي من امثال شواهده ومعبده ومغلب .

3 - لا يجوز الاعتماد في البات التضاد على موضع اللفظ من الكلم دون الاعتماد على الاصل اللغوي لهذا اللفظ . والمراد بهذا النظر الى معنى اللفظ في حال افراده عندما يركب في جملة ، لان السياق قد يكسبه معنى جديدا ، هو الذي يخرج به الى التضاد مثال ذلك قول ابن الانباري (29) : « ومن الاضداد ايضا قول العرب للرجل : « ماظلمتك وانت تصنفي » يحتمل معنيين متضادين : احدهما ما ظلمتك وانت

(18) ابو حاتم 116 . ابن الدهان 14 .

(19) 110

(20) 437

(21) مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن ، سنة 1895 ، ص 223 .

(22) 82 . وانظر اضداد ابي الطيب 208 .

(23) 7 .

(24) 11 ، 15 ، 18 ، 49 .

(25) ابن الانباري 255 ، 242 ، 244 ، 257 . ابو الطيب 273 ، 332 ، 650 ، 85 .

(26) 17 ، 30 - 32 .

(27) انظر ادم ، افلت ، مؤدي ، اسد ، اضب ، امعن ، وغيرها .

(28) 196 ، 199 .

(29) 160 .

وكيف وجدت في اللغة . واشترك في هذه المحاولة من افقت آراؤهم ، ومن اختلفت ، ومن اترفوا بها ومن رفضوها ، والقديما والمحدثون ، والعرب والمستعربون . وان كثيرا من الآراء التي اتى بها منكرو الاضداد هي في الحقيقة محاولة لتلميل وجودها ، ولذلك ادخرتها لاوردتها هنا .

واختلفت الطرق التي سلكها العرب وغير العرب في دراسة هذه الظاهرة اللغوية، في كثير من الاحيان. فقد اوغل بعض المستشرقين في تاريخ البشرية وارجع ظاهرة الاضداد الى المصور القديمة، عندما كان العقل البشري في سداخته، فلم يكن يفطن لما يعثره من تناقض . وكان قائل هذه النظرية هو ابل Abel اذ اعلن ان الاضداد هي البقية الباقية مما كان للاوائل من تناقض منطقي في التفكير . ولكن هذا القول لم يلق رواجاً حتى في اوساط المستشرقين ، فرد عليه فيل Veil ورفضه هو وراي ليجست Leguest الذي ارجع الاضداد الى اشتقاقات مبالغ فيها ..

وتوسط بعضهم في الايفال ، فلم يرجع الى التاريخ البشري ، واقتصر على التاريخ العربي القديم . فاعلن جيز ان العرب اقترضوا بعض هذه الاضداد من اللغات المجاورة لهم . ولما كان معناها الاصلية قد تختلف ابحاءا ، فقد ادى ذلك الى التضاد في العربية . وضرب مثالا لذلك بلفظ (جلل). اعلن ان العربية اخذته من اللغة العبرية ، وهو فيها بمعنى دحرج . واذا كان الشيء المدحرج ثقيل احيانا ، وخفيفا احيانا ، فقد اتمدت العربية على هذين الابعاض المتضادين للكلمة الواحدة واعطتها معنيين متضادين هما عظيم وحقير .

واقصد بعضهم الآخر ، ونظر في تاريخ الجماعة الواحدة ، فوجد فيه من التطور ما يؤدي الى التضاد دون استعارة من الخارج . وضرب جيز مثالا لذلك بالفعلين باع وشري . فقد كان المعنى الاصيل لهما بادل، حين كان البيع والشراء يقوم على مبادلة السلع . فلما هرفت النقود ، اخصص كل فعل منهما بواحد من القائمين بالعمل . ولكن رواسب العهد القديم بقيت حية ، فكانت تلقي ظلالها على معنى الفعلين ، فتخلط بينهما .

واضاف الدكتور منصور فهمي الى المثال السابق مثالا من حياتنا الحاضرة ، يلتبس فيه معنى الفعل لحدائة عهد الناس بالحديث الذي يدل عليه . فلما

ايضا لم تظلمني ، بل مذهبك انصافي ، واستعمال ما استعمله من ترك الظلم لك والحنف عليك والمعنى الآخر : ما ظلمتك لو انصفتني ، فاما اذ لم تنصفتني فاني اكافئك بمثل فعلك . وقول الله عز وجل : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) يفسر تفسيرين متضادين : احدهما : وما كان الله معذبهم واولادهم يستغفرون، اي قد وقع له في عنقه جل وهز انه يكون لهم ذرية تعبه وتستغفر لهم . فلم يكن ليوقع بهم هدايا يجتث اصلهم ، اذ علم ما علم من صلاح اولادهم وعبادتهم له جل وعلا . والتفسير الآخر : وما كان الله معذبهم لو كانوا يستغفرون ، فاما اذ كانوا لا يستغفرون فانهم مستحقون لفروب العذاب التي لا يقع معها البوار والاصطلام ، بل تكون كما وقع بهم من عذاب الجذب في السنين التي لحقتهم فاكلوا فيها الجيف والعلهز ، وكذاب السيف والاسر الذي لحقتهم يوم بدر وغيره . والله اعلم بحقيقة ذلك كله واحكم .

ولم يلتفت المؤلفون الاولون في الاضداد لهذا النوع ولم يشيروا اليه في كتبهم . وانما ظهر في القرن الرابع عندما شاعت بين الكتاب الرغبة في الاحاطة والاسراع والايان بما لم يات به السابقون. فتجلى عند ابن الانباري، ومن اخذ منه من اللاحقين عليه كابن الدهان والصفاني .

واضاف الدكتور منصور فهمي الى الاسباب السابقة سببا آخر ، يمكن ان نسميه - اذا احسنا الظن - تساهل اللغويين ، واذا اسأناه سميناه حب التكثر والتزيد والتباهي بما اورده كل منهم من الاضداد . فقد دفعهم ذلك الى ايراد كثير من الالفاظ لا صلة لها بالاضداد ، وانما هي من المشترك ، مثل المعصر والحزور والروح والقلب والهاد وزنا ونسل . الخ .

وتوجد الى جانب ما ذكرت عدة اسباب اخرى اوردها المستشرقون والدكتور منصور فهمي ، ولكن تنقصها صفة العموم التي تحلها بها الاسباب التي ذكرتها . فهي لا تتحدث الا عن نوع واحد من الاضداد، ولذلك ابقياها الى حين معالجة انواع الاضداد ..

اصول الاضداد

منذ تبنى اللغويون الى الاضداد، واختلفوا فيها، وهم في محاولة دائبة لتعليلها والكشف عن نشأتها ،

عليها حتى يؤدي بها ذلك الى التضاد . مثال ذلك الدفر ، التي تطلق على الرائحة الطيبة والكريمة . وسبب ذلك اختلاف شعور الانسان بها ، اذ يحبها شخص ويرتاح اليها ، ويتأفف منها اآخر وينفر لشدتها ..

اما اللغويون العرب فقصروا جهودهم على الاضداد العربية ، ولم يعمدوا عنها لا تاريخا ولا لغة ولا اجتماعا ، وحاولوا ان يتبينوا اصولها ونشأتها ومسالكها في اللغة العربية نفسها . واكثر الآراء التي رأيتها شيوعا عندهم كون كثير من هذه الاضداد من آثار اللهجات الكثيرة التي ضمتها العربية الفصحى . قال ابن الانباري (30) : « قال آخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال ان يكون العربي اوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ولكن احد المعنيين لحي من العرب ، والمعنى الاخر لحي غيره . ثم سمع بعضهم لغة بعض فأخذ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء .. فالجون الابيض في لغة حي من العرب ، والجون الاسود في لغة حي اآخر . ثم اخذ احد الفريقين من الاخر .. » . وترددت اصداء هذا القول عند أبي علي الفارسي (31) ، وأبن الدهان (32) ثم الكتاب الحديثين . وكان احد الدعائم التي استند اليها ابن درستويه (33) في انكار الاضداد ..

وأورد ابن الانباري رأيا آخر لم ينسبه الى احد ، وكان له صداه ، أيضا في الدراسات اللاحقة . قال (34) : وقال آخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فالاصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع . فمن ذلك الصريم ، يقال لليل صريم . وللنهار صريم ، لان الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فاصل المعنيين من باب واحد ، وهو القطع . وكذلك الصارخ والمستفيث ، سميا بذلك لان المفيث يصرخ بالاغاثة ، والمستفيث يصرخ بالاستفافة ، فأصلهما من باب واحد .. » .

وقد جعل الشيخ محمد الخضري هذا القول واحدا من رأيين له في تعليق نشأة الاضداد قال (35) :

كنا حديثي مهد بالقناطر (الكباري) التي تفتح وتغلق ، لم نستطع ان نستقر بعد على اعطاء لفظ واحد لكل من عملها . فنحن نقول : فتحت القنطرة اذا اطلقت في وجه المارة وفتحت للمراكب ، واذا فتحت امام المارة واغلقت طريق المراكب أيضا . وربما اجتمع الى حدائة المهد اختلاف النظرة .. فأصحاب المراكب يقولون عنها : فتحت ، اذا فتحت لهم واغلقت نسي وجه المارة ، وهؤلاء يقولون : فتحت ، ان حدث العكس . ولكن هؤلاء وهؤلاء غير منفصلين ، ومن هنا صار للكلمة معنيها المتضادان والشائعان معا ..

ولم يلتفت فريق الى التاريخ وبحث عن العلة فيمن يراه من جماعة وفرد ، وما يسودهما من ظواهر ذات تأثير في اللغة . فذهب الى ان بعض المعاني المتضادة يرتبط بعضها ببعض وتتدامى في الذهن ، فتؤدي الى الاضداد . مثال ذلك كلمة « البين » التي تطلق على الفراق والاجتماع ، والسبب في ذلك ان الانسان قد يفترق وحده عن جماعته ، وقد يفترق فيلحق بجماعة اخرى . ولا يختلف هذا القول كثيرا عن القول الاخر الذي اوردته دائرة المعارف الاسلامية أيضا منسوبا الى جيز ، ويرى ان الارتباط بين المعنى قد يكون بسبب ان احدهما نتيجة للاخر . مثل خفي البرق بمعنى ظهر واستتر . فان البرق لا يكاد يظهر حتى يخفي ، فالظهور والاختفاء متلاحقان ، وثانيهما نتيجة لاولهما . ومثل « ناء » بمعنى نهض بالحمل في مشقة ، وحمل الحمل . ومثلها ما سماه تداخل الاحداث ، فما كان اآخر الامر قد يكون اولا لغيره ، وما يكون اولا لامر قد يكون اآخر لغيره مثل « السدفة » فهي الوقت الذي بين النور والظلمة ، يمكن ان تختلف فيها القبائل أو الافراد بل سامعوا من اللغويين فيظنوا ان المراد بها النور وحده أو الظلام وحده .

وآخر ما جعله جيز من أسباب التضاد فموض الانفعالات والمشاعر وانبهامها واختلافها من شخص الى اآخر ، وتسرب هذا الفموض الى الالفاظ التي تدل

(30) 11 .

(31) المخصص 13 : 59 .

(32) 5 .

(33) الزهر 1 : 385 .

(34) 8 .

(35) الاصول 174 .

التخالف عنده تداخل اللغات ، وحذف حرف التعدية من الفعل اللازم لكثرة الاستعمال ، وتشبيه الفصل بمرادفه في المعنى أو ما نعرفه اليوم باسم التضمين . ويجدر بنا - قبل أن نترك ابن درستويه - أن نلاحظ أنه اضطر إلى الاعتراف بأنه « قد يجيء الشيء النادر من هذا » في اللغة ، فهو لم يستطع أن ينكر وجود هذا النوع المتخالف والمتضاد من الالفاظ في اللغة ، ويعلم خلوها التام منه ، وإنما أعلن أنه « نادر » وله علله ..

واسم أبو علي الفارسي في التعليل أيضا ، فأضاف العلة المجازية . روى ابن سيده عنه (37) : « أما .. اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين فينبغي ألا يكون قصدا في الوضع ولا أصلا . ولكنه من لغات تداخلت ، أو تكون كل لفظة تستعمل بمعنى ثم تستعار لشيء ، فتكثر وتقلب فتصير بمنزلة الأصل » . وقد كان لهذا الرأي الأخير صداه الواسع في تقسيم الأضداد بعد ذلك .

هذه هي الآراء التي جاء بها القدماء في مرض تعليل الأضداد حيناً ، ومعرض انكاره حيناً آخر . وتلقفها عنهم المحدثون فأذوها بينهم مقتصرين عليها تارة ، ومتسعين فيها أخرى ، ومتشعبين بها في أحوال كثيرة حتى خلصوا إلى آراء ما كانت تدور في خلد القدماء ..

وبقي أمامي المذهب الثاني الذي جمعه الشيخ محمد الخضري (38) علة لنشأة الأضداد وهو أن يطلق اللفظ على شيء واحد ، تتغير مظاهره أحيانا ، فلا يفتن السامع إلا إلى المظهر ، فيحكم بالتخالف والتضاد .. مثال ذلك عنده الجون ، فالأصل فيها أن تطلق على السحاب . ولما كان من السحاب الأبيض ومنه الأسود فقد ظن اللغويون أن هذه الصفة مراعاة في اللفظ ، وأنه يطلق على الأبيض من السحاب تارة ، وعلى الأسود أخرى ، فهو إذن من الأضداد . وليس الأمر كما ظنوا ، فلا تضاد في اللفظ لأنه لا يدل إلا على السحاب مجردا من كل صفة ..

وآخر العلل التي عثرت عليها ما أضافه الدكتور منصور فهمي مستقيا إياه من أقوال القدماء عن

أولهما أن يكون بين المعنيين فكرة واحدة تجمعهما فيصالح اللفظ لكل منهما لاشتراكه في هذه الفكرة . وحين يفتن الناس من هذه الفكرة المشتركة يفتنون أن اللفظ من الأضداد . مثال ذلك الصريم ، هو الليل أو النهار . وأصل اللفظ من الانصرام بمعنى الانسلاخ ، فالليل صريم لأنه ينسلخ من النهار ، والنهار صريم لأنه ينسلخ من الليل ، وهما متداخلان . ومصدق ذلك الآية الكريمة : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » .

ونستطيع أن نضع تحت هذا القول ما علل به عبد الفتاح بدوي التضاد في الفعل باع . فقد رأى أن المعنى الأصلي له مد باعه ، سواء للاخذ أو العطاء ، ومن هنا اطلق على الشاري والبائع لأن كلا منهما يفعل ذلك في وقت البيع .

وجاء ابن درستويه بعلمتين أخريين للتخالف والتضاد في معنى الكلمات . قال السيوطي (36) حاكيا قوله : « فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين أو أحدهما ضد للآخر لما كان ذلك إبانة بل تمعية وتغطية . ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا العلل ، كما يجيء فعل وأفعال . فيتوهم من لا يعرف العلل أنهما لمعنيين مختلفين ، وأن اتفاق اللفظان . والسماع في ذلك صحيح من الصرب ، فالتأويل عليهم خطأ . وإنما يجيء ذلك في لغتين متباينتين ، أو لحذف واختصار وقع في الكلام ، حتى اشتبه اللفظان وخفي سبب ذلك على السامع وتأول فيه الخطأ . وذلك أن الفعل الذي لا يتمدى فاعله ، إذا احتيج إلى تعديته لم تجز تعديته على لفظه الذي هو عليه حتى يغير إلى لفظ آخر ، بأن يراد في أوله الهمزة ، أو يوصل به حرف جر بعد تمامه ، ليستدل السامع على اختلاف المعنيين . إلا أنه ربما كثر استعمال بعض هذا الباب في كلام العرب ، حتى يحاولوا تخفيفه ، فيحذفوا حرف الجر منه ، فيعرف بطول العادة ، وكثرة الاستعمال ، وثبوت المفعول وأمرابه فيه خاليا عن الجار المحذوف . أو يشبه الفعل بفعل آخر متعدد على فيسر لفظه ، فيجري مجراه لاتفاتها في المعنى ، كقولهم : حبست ، الدابة ، وحبست ما لا على المساكين » . فأسباب

(36) الزهر 1 : 385 .

(37) المخصص 13 : 59 .

(38) الأصول 174 .

التفاؤل والتطير والتهكم ، إذ ان العرب اعتادوا ان يعدلوا عما يكرهون من الفاظ الى ما يحبون ، فسما الصحراء المهلكة : المفازة من الفوز ، والاعمى : البصير ، والمدوغ : السليم : ونادوا الجاهل بقولهم : « يا هائل » . ولا زلنا نحن نسمع فى المقاهى عبارة : « خذ اللبان » يريدون بها الاكواب الفارغة .

ويؤدى بنا التأمل الدقيق فى العلل التى أوردها الدارسون للغة العربية نفسها دون محاولة للفلسفة او للثور على نظرية عامة او الإبتاد فى مجاهل التفكير البشري ، يؤدى بنا هذا النوع من التأمل الى ان اهم ما قالوا من طلل واخطره هو « المعنى الاصلي للالفاظ » . فنحن فى حاجة الى اعادة النظر فى هذه الالفاظ ، وفيما ذكره لها اللغويون من معان ، وفى حاجة الى محاولة استكشاف الطريق الى المعنى الاصلي الحق لها ، الذى لا يابه بما حولها من ملايسات ، ولا بما يرتبط بها من ظواهر ، ولا بما يؤدى اليه من نتائج ، ولا بما قطعه اللفظ من اشواط سائرا فى طريق معتدلة اانا ومعوجة داونة . فان وصلنا الى ذلك المعنى ، فمرنا الضوء من كل مكان ، واستبان لنا تطور اللفظ ، وما اكتسبه من معان ودلالات ، وما أحيط به من ظلال ، جعلته مشوباً بالفموض أحيانا ، وهرضة للخطأ أحيانا اخرى .

واما بقية العلل فهى ارباب بعض الطرق التى سلكها اللفظ ليصل الى درجة التضاد مثل اللغات ، والمجاز ، والحذف للتخفيف ، وما اليها من امور . كذلك يؤدى بنا التأمل الدقيق فى الاقوال السالفة الى نتيجة قد تبدو فريبة ولكنها حقيقة واقعة . اعني أنه لم يوجد من اللغويين على قدر ما نستطيع الحكم من خلال ما عندنا من معلومات من ينكر وجود الاضداد فى اللغة العربية الفصحى . فمن رفضوا الاضداد رفضوا اصالتها ، اريد أنهم رفضوا ان تكون وضمت اصلا للمعنيين المتضادين . ولكن ما خضعت له من تطور بالتوسع او المجاز او الحذف ادى الى وجود لفظين متماثلين فى كل شيء ، بحيث لا يمكن ان نفرق بينهما ونعدهما لفظيين متميزين ، غير ان معنييهما متضادان . كذلك ادى انصباب الروافد القبلية دون تمييز بينها فى تيار العربية الفصحى الى ما اشبه الظاهرة السابقة . فالفصحى بصورتها الراهنة تحتوي على هذا النوع

من الالفاظ (الذى نسميه الاضداد) باعتراف جميع القدماء ، وان اختلفت اصول هذه الاضداد ، والطرق التى سلكتها حتى وصلت الى التيار الحالي . .

ويؤدى بنا ايضا الى نتيجة اخرى اجمع عليها المنكرون والمؤيدون ، هي قلة الاضداد فى اللغة العربية الفصحى . فابن درسيويه من المعارضين يصفها « بالشئ النادر » ، وابن الانباري من المؤيدين يقول (39) : « هذا الضرب من الالفاظ هو القليل الظريف فى كلام العرب » .

شروط الاضداد

اذا كان من انكر الاضداد اطلق قوله فيها ثم اضطر الى التراجع قليلا منه ، عندما استقصى النظر فى اللغة ، او احتوى قوله على ما يومية الى تراجع ، فاننا نجد الظاهرة نفسها عند المؤيدين لوجود الاضداد او بعضهم .

فقد كان فى وهم المؤلفين الاولين ان الاضداد الفاظ قلائل فى اللغة . فحاولوا جمعها وابرازها . وتحت اثر من هذا الاحساس ، ومن هذه الغاية ، جمعوا مع الاضداد الفاظا كثيرة عدوها اضدادا ، وهي واهنة الصلة بها . وكان اكثر المؤلفين وقوعا تحت هذا الاثر قطرب : اول من كتب عن الاضداد .

فاضطر من جاء بعده الى ادخال ما قاله فى كتابه كيلا يتهم بأنه فاته من الاضداد شيء (40) . ولكن اهل القرنين الثالث والرابع كانوا قد اخذوا يتخلصون من هذا الاثر ، بعد ان راوا امامهم من كتب فى الاضداد . فآخذوا يمدون النظر فيها ، وفى اضداد قطرب خاصة ، وينقدون منها كثيرا . وعند تتبع هذا النقد استخلصت كثيرا من الشروط يجب ان تتوفر فى اللفظ حتى يدخلوه فى الاضداد . ولكن الامر المؤسف ان هذه الشروط اهملها واضعوها انفسهم ، ولم يطبقوها على كثير من الالفاظ التى دونوها فى كتبهم . وبالرغم من ذلك اتبع هذه الشروط لاهميتها فى توضيح «صورة الاضداد» فى اذهانهم ، وان لم تتحقق كل التحقق فى كتبهم .

واهم مؤلفا يكثر عنده هذا النوع من الاقوال هو ابو بكر محمد بن القاسم الانباري . ونستطيع ان نقول انه يضع الشروط التالية فى اللفظ ليعده من الاضداد :

(39) 6 .

(40) ابو الطيب 688 .

الطاحي مندي من الاضداد ، لانه لا يقال طاح
للمنخفض ، انما يقال للمنخفض مطحو ومطحى .

واخرج ما كان فعلا واسما ، قال (45) :
« قال قطرب : من الاضداد قولهم : قد جمرت
المرأة : اذا جمعت لها كالتزمتين من حلق ونسف -
والنزعة : ما ينحسر من شعر جانبي الرأس الذى
يمضد نابت فى الجبين - قال : ويقال للدوابية
جمار . ويقال : للمرأة جماران ، اي ذؤابتان ضفرتا
مقبتين على وجهها . . فقول قطرب : جمرت المرأة
ولها جماران من الاضداد ، ليس بصحيح ، لان
جمرت لا يكون بمعنى وفرت الشعر ، ولا يقال : جمار
لما يضاد للدوابية ، فلا وجه لادخاله فى حروف
الاضداد » .

فاين الانباري يشترط ان يكون المعنيان
المتضادان لفعلين أو اسمين أو صفتين ، وكل منها
على وزن واحد ، ولا يحكم بالتضاد فيما شذ عن
ذلك .

كذلك اشترط ان يكون للصفة الواحدة معنيان
متضادان لا يمكن ردهما الى معنى واحد ، قال (46) :
« قال بعض الناس : طرب : حرف من الاضداد .
يقال : طرب اذا فرح ، وطرب اذا حزن . . ولم
يصب هذا القائل مندي ، لان الطرب ليس هو
الفرح ولا الحزن ، وانما هو خفة تلحق الانسان فى
وقت فرحه وحزنه » .

واتفق ابو الطيب اللغوي معه فى هذا الرأي ،
قال (47) : « ابو حاتم وقطرب قالا : ومن الاضداد
المائم . فالمائم النساء المجتمعات فى فرح وسرور ،
والمائم النساء المجتمعات فى غم وحزن ومناحة . . .
وقال غيرهما : المائم جماعة النساء ، لا واحد لها
من لفظها ، وسواء كن فى وليمة او مناحة او فى
غيرهما بعد ان يكن مجتمعات . فعلى هذا ليس المائم
عنده من الاضداد » .

1 - ان تكون صيغة اللفظ ذي المعنيين
المتضادين واحدة . فاخرج من الاضداد ما كان احد
المعنيين لافعل والاخر لفعل . قال (41) : « قال
قطرب : من الاضداد قولهم : قد خدمت النمل :
اذا انقطعت مروتها وشسما ، واخدمتها : اذا
اصلحت مروتها وشسما . وهذا ليس مندي من
الاضداد ، لان (خدمت) لا يقع الا على معنى واحد ،
وكذلك (اخدمت) . ولفظ اخدمت يخالف لفظ
خدمت . وما لم يمر الا من معنى واحد بلفظه لا يكون
من الاضداد » . واتفق ابو الطيب اللغوي مع ابن
الانباري فى هذا الرأي ، بل فى كلامه الذى اذكره
بعد ما يدل على اتفاقه معه فى حديثه عن كل الصيغ
التالية .

واخرج ابو بكر منها ما جاء على فعل المجرد
وفعل المضاعف . قال (42) : « قال قطرب : من
الاضداد قولهم : بدن الرجل : اذا حمل اللحم
والشحم ، وبدن تدينا : اذا اسن وكبر وضعف .
قال ابو بكر : وليس الامر مندي على ما ذكر قطرب ،
لان (بدن) لفظه يخالف لفظ (بدن) . وما لا يقع الا
على معنى واحد لا يدخل فى حروف الاضداد » .

واخرج منها على ما كان على فعل وفعل وفعل
من الصفات . قال (43) : « قال قطرب : من
الاضداد قولهم : رجل نجد : اذا كان سريع الاجابة
الى الداعي اذا دعاه . . ويقال : رجل نجد : اذا كان
مفرغا من أي وجه . . وقال غير قطرب : يقال
للمفزع : منجود ونجيد . . قال ابو بكر : وليس
النجد مندي من الاضداد ، لان العرب لا توقعه الا على
معنى واحد ، وما كان بهذه الصفة لا يدخل فى
الاضداد » .

واخرج ما كان على فاعل ومفعول ، قال (44) :
« ومن حروف الاضداد : الطاحي : المنضجع .
والطاحي : المرتفع . . هذا قول قطرب . وليس

(41) 276 . وانظر 583 ، 291 ، 298 ، 304 .

(42) 310

(43) 320

(44) 302

(45) 279

(46) 57 . وانظر 58 ، 92 .

(47) 21 . وانظر 37 ، 57 .

ولكن هذه الصورة المتماثلة في ظاهرها مختلفة في حقيقتها ، اذ تختلف الملل ، الصرفية التي وصلت بها الى صورتها . مثال ذلك قوله (53) : « ومن الاضداد - زعم التوزي - قولهم : رجل مود اي هالك ، ورجل مود اذا كان ذا سلاح قويا . قال ابو الطيب : وليس كذلك ، لان المودي الهادي غير مهموز ، وفاء الفعل منه واو ، يقال : اودى الرجل يودي ايداء اي هلك . . والمؤدي من السلاح مهموز ، وفاء الفعل منه همزة ، وانما معناه ذو اداة الحرب . يقال : قد ادى يؤدي : اذا تمت ادائه للحرب وسلاحه . . فهذا غير الاول » . وقد ادى به هذا التصور للاضداد الى ان يخرج منها ما جاء على مفتعل ومفتعل مما عينه منقلبة عن ياء او واو ، اذ لا يبين فيه كسر العين وفتحها لسكون الالف ، مثل الميتاع والمجتاب والمجتاح ، ومن المدغم العين في اللام ، مثل المبتز والمحتز والمختص . ووضعه في اواخر الكتاب (54) .

واخرج مجموعة تماثلها لاختلاف حرف العلة الاصلية فيها ، قال (56) : « قال ابو حاتم : ومن الاضداد قولهم : ضاع فلان ، من الضياع ، وضاع الشيء اذا ظهر وبدا . . قال اللغوي ، واما انا فلا ارى هذا من الاضداد ، لان شرط الاضداد ان تكون الكلمة اتواحدة بمينها تستعمل في معنيين متضادين ، من غير تغيير يدخل عليها . وقولهم : ضاع يضيع من الضياع انما الالف فيه منقلبة عن ياء . . وقولهم ضاع اذا ظهر الالف فيه منقلبة عن واو »

بل ذهب الى ابعد من ذلك واخرج من الاضداد ما اختلفت صيغ المجرى والمصدر منه من الافعال ، ومد ذلك اختلافا بينهما . قال (57) : « ومن الاضداد القانع ، زعموا . قالوا : فالتانع الراضي ، والتانع السائل الطالب . . قال عبد الواحد : ليس هذا عندي من الاضداد ، لان شرط الاضداد ، على ما اصلنا

واشترط ابن الانباري ايضا ان يكون هذان المعنيان فصيحين لا من ابتكار العامة ، قال (48) : « قال قطرب : الحرفة من الاضداد ، يقال : قد احرف الرجل احرافا اذا نما ماله وكثر ، والاسم الحرفة من هذا المعنى . قال : والحرفة عند الناس الفقر وقلة الكسب . وليست من كلام العرب انما تقولها العامة » .

واشترط ان يكون المعنيان معروفين استعملهما العرب في حوارهم . قال (49) : « قال قطرب : من الاضداد : الهجر ، يقال : هجرت الرجل : اذا عرضت عنه ، وهجرت الناقة : اذا شددت في انفها الهجار - وهو حبل - لتعطفها على ولد غيرها . . وهذا القول عندي بعيد ، لان المعنى الثاني لم يستعمل في الناس » .

ويبدو ان ابا الطيب اللغوي يتفق مع ابن الانباري في هذا الرأي ايضا ، وان لم يطن ذلك صراحة « قال مثلا (50) : « قال قطرب ، ومن الاضداد التفل . فالتفل المنتن ، والتفل المتطيب . قال ابو الطيب : المعروف من التفل المنتن » .

واشترط ابو الطيب الا يكون المعنى الثاني مجازيا . فاخرج من الاضداد (51) : « ما جاء مسمى باسم غيره ، لما كان من سببه » مثل العشاء الذي يطلق على الناقة التي بلغت عشرة اشهر في حملها ، والناقة التي نتجت حديثا ، والارة الذي يطلق على الحفرة التي فيها النار ، وعلى النار نفسها .

واشترط في المعنى الا يكون مقلوبا او مزالا عن جهته ، مثل قولهم ناه بي الحمل ، ويا خيل الله اركبي . ولم يعد ذلك من الاضداد (52) .

وانفرد ابو الطيب اللغوي باخراج مجموعة من الالفاظ تتضاد في معانيها وتتماثل في صورتها ،

(48) 267 .

(49) 213 . وانظر 288 ، 289 ، 300 ، 346 .

(50) 113 . وانظر 163 .

(51) 711 .

(52) 720 .

(53) 671 .

(54) 691 .

(56) 452 .

(57) 577 .

أولا ، أن تكون الكلمة الواحدة تنبئ عن معنيين متضادين ، من غير تغيير يدخل عليها ، ولا اختلاف في تصرفها . والقانع بمعنى الراضي يقال منه قنع يقنع ، مثل شرب يشرب ، والمصدر قناعة وقنعا وقناها وقنمانا - أي رضي - فهو قانع وقنع . والقانع - بمعنى السائل - يقال منه قنع يقنع مثل صنع يصنع ، والمصدر قنوعا لا غيره . . . وإذا تغير البناء لتغيير المعنى فليس من الأضداد .

ونستخلص من هذا غموض صورة الأضداد في ذهن قارئ أو عدم وجود حدود لها ، وأخذها في الوضوح والجلالة والتحدد على مر الزمن . فكانت اللغات الأولى عنها عند أبي حاتم السجستاني . لم كان كمال البروز والتحدد عند ابن الأنباري وأبي الطيب .

أنواع الأضداد

نستشرف من الحديث السابق عن أسباب الأضداد ، والاختلاف فيها ، وتغير صورها عند اللغويين ، نستشرف منه أن الأضداد لم تضم فئة واحدة من اللفاظ كان من المحتمل أن يتفق عليها العلماء أو على كثير من الظواهر المتصلة بها .

وبالرغم من احساس العلماء المبكر بأن الأضداد ثبات مدة ، لم يجد بين القدماء من حاول أن يصنفها ، تصنيفا قاصرا أو شاملا . وبالرغم من أن المحدين اضطروا إلى الفصل بين أنواع منها ، ليسهل عليهم رفضها أو تمليلها ، فإنهم لم يرتقوا بهذا الفصل إلى أن يكون تصنيفا .

والرجل الوحيد الذي حاول شيئا من ذلك هو عبد الفتاح بدوي . ويبدو أنه أراد أن يعرض ما فات اللغويين ، فإمطانا تقسيمين لا واحدا . أما التقسيم الأول لصغير ومحكم ، ويقوم على أساس نحوي . فقد جعل الأضداد أربعة أنواع :

1 - أضداد في اللفظ المفرد ، كالقصر للحيض والظهر .

2 - أضداد في الفعل ، كظن للشك واليقين .

3 - أضداد في التراكيب ، كعبارة « تهببت الطريق وتهببني الطريق » .

4 - أضداد في المتعلقات ، كرفب عنه ورفب فيه .

وكان التقسيم الثاني واسعا ، ينظر إلى عدة أسس بحيث تغيب عن النظر الذي يريد أن يصل إليها . فالأضداد في هذا التقسيم تقع في عشر طوائف ، هي :

1 - الأضداد التي تحقق المعنى في كل من المتعلقين على حد سواء ، مثل اطلاق الصارخ على كل من المغيث والمستغيث .

2 - الأضداد التي يكون أحد معنيها حقيقيا والآخر مجازيا ، مثل اطلاق الكأس على الإناء والشراب الذي فيه .

3 - الأضداد الآتية من لهجات مختلفة ، مثل وثب وسجد .

4 - الأضداد التي يصح أن ينسب مصدرها إلى أي من الطرفين ، مثل اطلاق المولى على السيد وال خادم .

5 - الأضداد التي تتوافق منطقيا وتختلف تصريفا ، مثل اطلاق المختار على الشخص الذي اختار ، والشئ الذي اختير .

6 - الأضداد الناتجة عن المتعلقات ، مثل رغب فيه ورغب عنه .

7 - الأضداد الناتجة عن السياق ، مثل : « نسوا الله فنسيهم » .

8 - الأدوات والحروف ، مثل ان واذا وإذا .

9 - الأضداد الناتجة من التفسير ، مثل شاة درعاه ، وماتم . .

10 - الأضداد الناتجة من تصف اللغويين ، مثل بعض .

ومهما يكن من شيء ، فإني لن أنسى كثيرا بالتقسيمات النظرية ، وأن كنت لن أهملها كل الإهمال . وأجعل ههنا كلة في تتبع الأنواع المختلفة التي ادخلها مؤلفو الأضداد فعلا . في كتبهم ، إذا اختلف النظر والتطبيق عندهم . وأبدأ بأول مؤلف : قطرب ، إذ توسع في تصور الأضداد أكثر من غيره ، حتى اضطر من جاء بعده إلى نقده . ورفض كثيرا منها . ولن أقف عند التقسيم ، بل أتبع كل صنف بما وجه إليه من نقد . وهالك ما وجدته من أصناف عند قطرب :

أكثرهم من كتبه . وربما كان واجبا ان نستثني ابا عبيدة والتوزي من هذا الحكم ، اذ يبدو انهما اورداه في كتابيهما . قال ابو الطيب (62) : « قال ابو عبيدة : ترب الرجل يترب تريا : اذا لصق بالتراب من الفقر . . واترب الرجل يترب اتروا : اذا كثر ماله ككثرة التراب . فالترب المحتاج ، والترب الفني » وقال ابو الطيب ايضا (63) : « قال التوري : ومن الاضداد لبث الرجل اذا اعطيته من الثواب ، وابته اذا طلبت نواله . قال ابو حاتم : ولا اعرف الثاني الا توهما » .

1 - الاضداد الحقيقية ، اهي الالفاظ ذات المعنيين المتقابلين عنده . قال (58) : « العقوق للحامل والعقوق للحائل ايضا » . وقال (59) : وقالوا في الاضداد : النحاحة : السخاء ، والنحاحة : البخل . ونازعه غيره في تضاد بعض ما جاء به من الفاظ .

قال ابو الطيب (60) : وحكى : يقال : بردت الماء ، من البرد ، أي جعلته باردا . وبردته : سخنته . قال : وانشدنا بعضهم :

سكت البرد في المياه ، فقلنا

برديه توافقيه سخينا

اما الاصمعي فوجدت عنده مثلا لو صح وضعه مع ابي عبيدة والتوزي . قال (64) : « قسط : جار . واقسط بالالف : عدل لا غير . قال الله جل ثناؤه : (واقسطوا ان الله يحب المقسطين) اي العادلين . وقال في الجائرين : (واما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) . . » . ويخيل لي ان في العبارة سقطا ، وتمتها : « قسط : جار ، وقسط : عدل . واقسط بالالف : عدل لا غير » بدليل صبارة (لا غير) وبدليل ورودها على هذه الصورة عند ابن السكيت الذي يروي كثيرا من الاضداد عن الاصمعي ، وورودها كذلك عند غيره .

قال قطرب : معنى برديه في هذا البيت سخنيه . وقال ابو حاتم : هذا خطأ ، انما هو برديه (يريد : بل رديه) من الورد ، ولكنه ادغم اللام في الراء ، كما يقرا (كلا ، بل ران على قلوبهم) قال ابو الطيب : وهذا الصحيح ، وبه يستقيم معنى البيت . وقال ابن الانباري عن لفظ ماخر (61) : « ومن حروف الاضداد البحتر : يقال رجل بحتر ، اذا كان قصيرا - او بهترا بالهاء ايضا - ويقال : رجل بحتر اذا كان عظيما . ذكر هذا قطرب ، وما علمنا احدا وافقه على ان البحتر يقال للعظيم » .

3 - الالفاظ التي تنفق في الصيغة والحدث ،

وتختلف في نسبتها الى من قام به او من وقع عليه . ومثالها فعمل التي تدل على الفاعل والمفعول . قال (65) : « الريبة : التي تربب . والريبة : التي تربت . قال الله عز وجل في الريبة : « وربائبكم اللاتي في حجوركم » .

2 - الالفاظ المتضادة المعاني من اختلاف الصيغ ، مثل فعل وافعل ، وفعل وفعل من الالفعال ، وفعل وفعل وفعل من الصفات . وقد اوردت اثنا امثلتها ، وما وجهه اليها ابن الانباري وابو الطيب من نقد ، واخرجهما ايها من الاضداد . والحق معهما ، ولذلك لم يوافق قطريا من اتى بعده من مؤلفي الاضداد . فاستبعده

(58) 69 . واورده ابو حاتم 224 ، وابن الانباري 114 ، وابو الطيب 495 ، وابن الدهان 15 والصغاني 588 .

(59) 133 . واورده ابو حاتم ، 253 ، وابن الانباري 301 وابو الطيب 650 وابن الدهان 20 ، والصغاني 670 .

(60) 86 . واورده ابن الانباري 31 ، وابن الدهان 7 .

(61) 257 . واورده قطرب 49 ، وابو الطيب 85 ، وابن الدهان 7 ، والصغاني 389 .

(62) 115 . واورده ابن الانباري 291 .

(63) 124 .

(64) 21 . واورده قطرب 98 ، وابن السكيت 293 وابن الانباري 26 وابو الطيب 594 ، وابن الدهان 17 ، والصغاني 625 .

(65) 84 . واورده الاصمعي 80 ، وابو حاتم 174 ، وابن السكيت 353 ، وابن الانباري 85 وابو الطيب 310 ، وابن الدهان 11 ، والصغاني 472 .

الفاعل . والتواب : الله تعالى . قال : (وان الله تواب حكيم) . وقال الله تعالى : (ان الله يحب التوابين) .

ويجدر بنا ان نلاحظ ان الاحداث التي تدل عليها هذه الالفاظ او اغلبها تحتاج الى الاشتراك ولا يمكن ان تقع لفرد واحد . فالتربية مثلا تحتاج الى من يقوم بها والى من تقع عليه ، والركوب يحتاج الى راكب ومركوب .. الخ .

4 - الالفاظ المشتركة المعنى المختلفة مظاهره ، مثل قول قطرب (69) : « اهنف الرجل اهنافا - بالنون والتاء : ضحك ضحكا وريدا . واهنف أيضا : بكى . ويقال : تهانف الرجل تهانفا : اذا ضحك ضحك تعجب » . وقال ابن الأنباري : « تهانف معناه قال : ايها ايها في البكاء » . والواضح ان الاهناف هو الحركة والصوت اللذين يصدران من الباكسي والضاحك ، فالمعنى واحد ، غير ان مظاهر مختلفة تنصل به . ومثله الماتم كما رأينا .

ولم ينفرد قطرب بهذا النوع ، بل وجد عند غيره من أصحاب الاضداد . فقد اورد الاصمعي في كتابه الطرب ، التي مر بنا نقده ابن الأنباري لها . ولم اجد عند أبي حاتم من هذا النوع الا ما نقله من قطرب وأبي زيد . مثال ذلك قوله (70) :

« قال أبو زيد : طبخته : اذا شويته ، وكذلك اذا طبخته في القدر . قال : ويقال ، طبخته الشمس اي احرقته ، وطبخته في التنور : اي شويته .. » فالمراد بالطبخ الانضاج ، سواء اكان بالشئ ام بالفلي في القدر ..

والغريب ان ابن الأنباري الذي نقده كثيرا مما ذكره غيره ، وقع هو نفسه فيه ، ورضي عن كثير منه . ومن اغرب ذلك قوله (71) : « الصلاة من الاضداد . يقال للمصلي من مساجد المسلمين صلاة ، ويقال لكنيسة اليهود صلاة . قال الله عز وجل :

وصيغة فعول ، قال (66) : « ومنها قول الله عز وجل : (لئنما ركوبهم) لما يركب . وركوب للفاعل أيضا مثل ضروب وقتول . وقالوا : مكان ركوب : اي مركوب . وقال الآخر : « يدمن صوان الحمصي ركوبا » اي مركوبا . طريق ركوب ، وطرق ركب . وقال اوس :

تضمنها وهم ركوب كأنها
اذا ضم جنبه المخارم رزق

وهو الصف من الناس اذا انقطعوا ، وهو بالفارسية رزده » .

وصيغة فاعل أيضا ، قال (67) : « وقد جاءوا بفاعل في معنى مفعول ضدا ، قالوا : سر كاتم ، اي مكتوم ، وامر عارف ، وما انت بحازم عقل : اي محزوم عقل ، وهذه تظليقة بائنة : اي مبانة فيها . اخبرنا الثقة : ومثله قول الله جل وعلا : (لا عاصم اليوم من امر الله) كانه يريد لا معصوم ، و (هو في عيشة راضية) من ذلك اي مرضية ، وقد يجوز ان يكون المعنى في راضية لاهلها ... » . ويرى بعض النحويين ان العبارات تحتوي على فاعل مقدر بمد الصفات ، فالتقدير عنده سر كاتم صاحب او سامعه وامر عارفه الناس ... الخ .

ووافق اللغويون قطربا في مد هذا النوع من الاضداد ، وادخلوه في كتبهم . وتنبه بعضهم الى جمع الالفاظ المختلفة تحت صيغتي فعول وفعيل ، وفترتها بعضهم الآخر . فجمع قطرب معظم صيغ فعول وعقد لها عنوانا خاصا بها ، ولم يجمع صيغ فعيل . واتبعه في الامر ابن ابو حاتم ، حتى اشتركا في كثير من الالفاظ التي اوردها (154 - 163) . وجمع الاصمعي بمض صيغ فعول دون عنوان (87 - 91) واهمل صيغ فعيل . فاتبه ابن السكيت .

واضاف ابو حاتم صيغة فعال ، التي تطلق على الفاعل والمفعول اليه . قال (68) : « التواب : التائب

(66) 13 . واورده الاصمعي 90 ، وابو حاتم 154 ، وابن السكيت 362 ، وابن الأنباري 239 وابو الطيب

306 ، وابن الدهان 17 ، والصفاني 481 .

(67) 33 - 44

(68) 196 . واورده ابن الأنباري 338 ، وابو الطيب 111 ، وابن الدهان 8 ، والصفاني ، 411 .

(69) 52 . واورده ابن الأنباري 258 ، وابو الطيب 683 ، وابن الدهان 21 .

(70) 211 . واورده أبو الطيب 462 ، والصفاني 554 ، ووضعه ابن الأنباري في اشباه الاضداد 185 .

(71) 225 . وانظر 227 .

يا ايها الذين آمنوا لا تقرّبوا الصلاة وانتم سكارى (اراد لا تقرّبوا المصلى ، هذا تفسير ابي عبيدة وغيره . وقال عز ذكره : (لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد) والصوات عني بها كنانس اليهود ، واحدتها صلاة .. فالصلاة موضع صلاة الانسان ، مسلما كان او مسيحيا او يهوديا او غيرهم .

ويتمثل هذا النوع ايضا في اشداد ابي الطيب ، وابن الدهان ، والصفاني ، بسبب كونها تستهدف الجمع ، فهي تورد ما اورده الكتب السابقة عليها . بل اضاف بعضها الفاظا جديدة لم ارها فيما بين يدي من كتب . ومثالها ما اورده الصفاني في قوله (72) : المجباء : التي يتمجب من حسنها ، والتي يتمجب من قبحها . واللفظ عني عن التعليق ، فالواجب ان يفسر بانه التي يتمجب منها ، سواء كان ذلك التمجيب للحسن او القبح او غيرهما .

5 - المشترك المعنى المختلف المفهوم تبعا لاختلاف التعلقات ، مثل قول قطرب (73) : «ومنه ايضا راغ عليهم : اناهم . وراغ عنهم : ذهب عنهم وتنهى . وقال الله جل ثناؤه (فراغ عليهم ضربا باليمين) اي اقبل عليهم ضربا بالالفة .. » وقد نقد بعضهم قطربا على هذا اللفظ ، قال ابن الانباري : « قال الفراء : لا يقال لمن رجع : راغ ، الا ان يكون مخفيا رجوعه .. وقال غير الفراء : لا يكون راغ ابدا الا بمعنى رجع على السبيل الذي ذكر الفراء ، وليس بحرف من الاشداد على ما ادعى قطرب » . وواضح ان معنى راغ واحد ، وهو الحركة الخفية ، ثم يحدد الحرف الذي يوضع بعد الفعل اتجاه هذه الحركة . فاذا كان الى او على ، كانت الحركة اقبالا ومجيئا . واذا كان عن ، كانت الحركة ادبارا وابتعادا .

ولكن قطربا لم يتفرد بهذا النوع من الاشداد ، بل وجد عند غيره من المؤلفين في الاشداد . ومثاله عند الاصمعي ما جاء في قوله (74) : « وحكي ان الاقهام الجوع ، وانشد : - وهو الى الزاد شديد الاقهام - يقال : اقهم من الطعام واقهى : اذا لم

يشتهه . واورد ابن السكيت وابو حاتم وابن الانباري وابن الدهان والصفاني ما ذكره سابقوهم من هذا النوع ، دون تعليق او نقد . واحسن من نقد هذا النوع هو عبد الفتاح بدوري في قوله : « جلي الا تفاد في شيء من الرغبة او السروغ او الانصراف (في قولنا رفيت فيه ومنه ورغت عليه ومنه وانصرفت اليه ومنه) انما الضدية بين معنى في وعن ، وعلى وعن ، والى وعن . وهذه الحروف الفاظ مختلفة ، ليست من الضدية التي نبحث عنها في شيء ، فابن اللفظ الذي له معنيان متقابلان » .

6 - الالفاظ التي اختلفت في العدد الذي تدل عليه قال قطرب (75) : « وقالوا ايضا : الزوج ، الفرد ، يقال : عندي زوجان من خفاف اي خفان . والزوج : الزوج ايضا » . وعلق ابن الانباري (240) على ذلك بقوله : « وهذا عندي خطأ ، لا يعرف الزوج في كلام العرب لاثنين ، انما يقال للاثنين زوجان . بهذا نزل كتاب الله ، وعليه اشعار العرب . قال الله عز وجل (وانه خلق الزوجين الذكر والانثى) اراد بالزوجين الفردين ، اذ ترجم عنهما بذكر وانثى . وقال عز ذكره : (ثمانية ازواج من الضان اثنين ، ومن المر اثنتين) وكذلك ما بعدهما ، فالازواج معناها الافراد لا غير . والعرب تفرد الزوج في باب الحيوان ، فيقولون : الرجل زوج المرأة ، والمرأة زوج الرجل .. فمن ادعى ان الزوج يقع على الاثنين فقد خالف كتاب الله جل وعز ، وجميع كلام العرب ، اذ لم يوجد فيما شاهد له ، ولا دليل على صحة تأوله » . واظن ان سبب هذا الخلط ، ان اللفظ لا يطلق على كل فرد وانما الفرد الذي لا يد من اقترانه بآخر . وعلى اي حال فاللفظ لا يحتوي على معنيين متضادين ، وانما اختلف الناس في العدد الدال عليه فحسب : واحد او اثنين ، وليس هذا بتضاد .

ووقع فيما وقع فيه قطرب من اللغويين ابو عبيدة ، قال ابن الانباري (76) : « ضعف حرف من الاشداد عند بعض اهل اللغة ، يكون ضعف الشيء

(72) 574 .

(73) 209 . واورده ابو الطيب 328 ، وابن الدهان 11 ، ونقده ابن الانباري 92 .

(74) 13 . ورواه قطرب 104 ، وابن السكيت 288 ، وابن الانباري 144 ، وابو الطيب 596 وابن الدهان 18 ، والصفاني 636 .

(75) 112 . واورده ابو الطيب 338 والصفاني 492 ونقده ابن الانباري 281 .

(76) 78 . واورده ابن الدهان 14 ، والصفاني 551 .

ومغضبنا ورغينا ، لعله بانه اذا فعل شيئا فعلناه
ابهامه . ولهذه العلة قال الله جل ذكره : أرسلنا ،
وخلقنا . ثم كثر استعمال العرب لهذا الجمع حتى
صار الواحد من هامة الناس يقول وحده : قمنا
وقعدنا ، والاصل ذلك .

ومهما يكن ، فليس هذا النوع من الاضداد ،
واسوتنا في ذلك من اهمله من اللغويين امثال الاصمعي
وابي حاتم وابن السكيت وابي الطيب ..

7 - الاضداد من اللغات . قال قطرب (79) :
« المصر - في لغة قيس واسد - التي قد دنت من
الحيف . وامعرت المرأة امصارا . وقد دنا امصارها .
وبلغة الازد : التي قد ولدت او تعنتت » . وسار
على هذا المسلك جميع المؤلفين في الاضداد ، وان
عارضهم بعض اصحاب المعاجم مثل ابن دريد . ومثال
هذا النوع عند الاصمعي قوله (80) : في المادة الاولى من
كتابه : « القرء عند اهل الحجاز الطهر ، وعند اهل
العراق الحيف .. » . وفي اصداده ايضا (81) :
« قال ابو زيد : السدفة في لغة تميم الظلمة ، وفي
لغة قيس الضوء . قال ابن مقبل :

وليلة قد جعلت الصبح موعدها
بصدرة العنس حتى تعرف السدفا

اي اسير حتى الصبح فترى ضوء الصبح .
وقال المجاج : « - واقطع الليل اذا ما اسدفا - اي
اظلم » . وقال ابو حاتم (82) : « العنوة : القهر .
واهل الحجاز يقولون الطاعة . يقال : اخذته عنوة
اي قهرا ، وقال اهل الحجاز طاعة ، وانشدوا :

هل انت مطيمي ايها القلب عنوة
ولم تلح نفس لم تلم في احتيالها

وقال كثير :

مثله ويكون مثليه . قال الله عز وجل (يضاف لها
المداب ضميين) قال ابو العباس ، عن الاثرم ، عن
ابي هيبدة معناه يجعل المداب ثلاثة امدبة ، قال :
وضعف الشيء مثله ، وضعفاه مثلاه . وقال ابو عبد
الله هشام بن معاوية : اذا قال الرجل : ان اعطيتني
درهما فلك ضعفاه ، معناه فلك مثلاه قال : والعرب
لا تفرد واحدهما ، انما تتكلم بهما بالثنائية . وقال
غير هشام وابي هيبدة : يقع الضعف على المثلين .
قال ابو بكر : وفي كلام الفراء دلالة على هذا .
وفي هذا القول مغالطة ، لان ضعف الشيء اما ان يراد
الشيء معه فيصير الجميع مثلي الاول ، واما ان
يراد وحده فيكون مثله فحسب .

وكذلك سار في طريقهما ابن الانباري ، اذ ارتضى
قول الفراء (77) : « مثل حرف من الاضداد ، يقال :
مثل ، للمثبه للشيء والمعادل له ، ويقال : مثل ،
للضعف فيكون واقعا على المثلين . زعم الفراء : انه
يقال رايتمكم مثلكم . يراد به رايتمكم ضعفكم ، ورايتمكم
مثليكم يراد به رايتمكم ضعيفكم . من هذا قول الله عز
وجل : (يرونهم مثليهم رأي العين) معناه
يرى المسلمون اي ثلاثة امثالهم ، لان
المسلمين كانوا يوم بدر ثلاث مئة وارمة عشر رجلا ،
وكان المشركون تسع مئة وخمسين رجلا . فكان
المسلمون يرون المشركين على عددهم ثلاثة امثالهم »
وفي هذا القول ما في اللفظ السابق من خطأ في
الشرح .

ويقرب من هذا الضمير (نحن) ، الذي ادخله
ابن الانباري في اشباه الاضداد قال (78) : « وما
يشبه حروف الاضداد نحن ، يقع على الواحد والاثنتين
والجمع والمؤنث فيقول الواحد : نحن فعلنا .
وكذلك يقول الاثنان والجميع والمؤنث . والاصل في
هذا ان يقول الرئيس الذي له اتباع يفضبون بفضبه ،
ويرضون برضاه ، ويقتدون بافعاله : امرنا ونهينا ،

(77) 79 . واورده ابن الدهان 19 ، والصفاني 657 .

(78) 113 . واورده ابن الدهان 20 .

(79) 101 . واورده ابن الانباري 136 و ابو الطيب 509 وابن الدهان 15 والصفاني 584 .

(80) واورده قطرب 99 ، وابو حاتم 134 ، وابن السكيت 276 ، وابن الانباري 8 ، و ابو الطيب 571 ،

وابن الدهان 17 ، والصفاني 620 .

(81) 43 . واورده قطرب 5 ، وابو حاتم 114 ، وابن السكيت 316 ، وابن الانباري 564 ، و ابو الطيب

346 ، وابن الدهان 12 ، والصفاني 500 .

(82) 185 . واورده قطرب 173 ، وابن الانباري 42 ، و ابو الطيب 491 وابن الدهان 15 .

تجنبت ليلى عنوة ان تزورها
وانت امرؤ في اهل ودك تارك

الى كتب الاضداد . ولذلك لم يوردهما احد من جاء
بعده .

ورد في اضداد الاصمعي تفسير عارض للفظ
الانقياص ، اذ قيل في مادة (قلص) (86) : « ويقال
قد قلص الظل : اذا قصر ... وقلص ماء البئر : اذا
جم وكثر . قال الراجز :

يا ربهما من باراد قلاص
قد جم حتى هم بانقياص

والانقياص : ان تشق الركبة طولاً او السن ، قال
أبو ذؤيب الهذلي :

فراق قميص السن فالصبر انه
لكل اثاث عشرة وجبور «

وسها ابن السكيت في عمرة تتبعه لالفاظ الاصمعي،
فالتقط اللفظ ، وخصص له مكاناً بين اضداده ، بعد
مادة قلص . ولكن احداً غيره لم يقع في هذا
السهو ..

10 - الالفاظ المختلف في تفسيرها . قال ابن
الانباري (87) : « فوق حرف من الاضداد ، يكون
بمعنى اعظم كقولك : هذا فوق فلان في السلم
والشجامة ، اذا كان الذي فيه منهما يريد على ما في
الآخر ، ويكون فوق بمعنى دون قولك : ان فلاناً
لقصير وفوق القصير ، وانه لقليل وفوق القليل ،
وانه لاحمق وفوق الاحمق ، اي هو دون المدموم
باستحقاقه الزيادة من الدم . ومن هذا المعنى قول
الله عز وجل (ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما
بموضة فما فوقها) يقال : معنى قوله : « فما
فوقها » : فما دونها .

ويقال : معناه فما هو اعظم منها . وقال الفراء:
الاختيار ان تكون فوق في هذه الآية بمعنى اعظم ،
لان البموضة نهاية في الصغر ، ولم يدفع المعنى الآخر
ولا رءاه خطأ وقال قطرب : فوق تكون بمعنى دون مع

اي طائفاً . وكل ما ذكره السالفون من
اضداد اللغات نجده عند اللاحقين منهم مثل ابن
السكيت وابن الانباري وابو الطيب وابن الدهان
والصفاني .

8 - الفاظ الثنائية التي لا تفرد . قال قطرب
(83) : « الصرعان : ناحيتا النهار ، اي اوله وداخره .
ومنه مصراماً الباب يلمان ايضاً . ضدان . ذلك لاول
النهار وداخره » . وتابعه في هذا ابن الدهان وحده .
واعترض عليه ابن الانباري قائلاً : « وقال غيره :
الصرعان الفداة والمشي جميعاً ، ولا يقع على واحد
منهما دون صاحبه . وكذلك القرنان والبردان كما
يقال لليل والنهار : اللوان ، والفتيان ، والرذفان ،
والمصران ، والجديدان ، والاجدان ، وابناسبات » .
واغفله غيرهما ، مما يدل على ان القدماء انفسهم لم
يرضوا عن هذا النوع .

9 - المشترك من الالفاظ دون ان يتضاد .
ومثاله ما اورده مانفا من جمرت الشمر ، وللمرأة
جماران . ونقد ابن الانباري له . ويرغم ذلك لم يبرأ
بعض اللغويين من الخلط بين الالفاظ ذات المعاني
المتضادة والالفاظ ذات المعاني المختلفة فقط ، كما فعل
قطرب فهذا هو الاموي يقول (84) : « نار غاضية :
اي مظيمة . ويلة غاضية : شديدة الظلمة » .
والنضاد غير واضح فيه ، الا اذا فهمنا ان الغاضية
هي النار الشديدة الاضاءة .

ووردت في اضداد الاصمعي كلمتان لا تمتان
الى الاضداد ، هما ضنين وظنين ، قيل (85) : « واما
قوله : « وما هو على الغيب بضنين » و « بظنين »
فهما وجهان معروفان . فالضنين البخيل ، يقال :
ضننت اذن ضناً . والظنين المتهم ، وهو من الظنة
اي التهمة . » فهما اقرب الى كتب الابدال منهما

(83) 106 ، وابن الدهان 14 ، وابن الانباري 127 .

(84) الاصمعي 62 ، وابن السكيت 336 ، وابن الانباري 209 ، وابن الدهان 16 ، والصفاني 559 ،
وابو الطيب 524 .

(85) 109 .

(86) 11 ، وابن السكيت 286 .

(87) 153 . واورده ابو حاتم 178 ، وابو الطيب 536 ، وابن الدهان 17 ، والصفاني 616 ، وانظر
قطرباً 163 .

لما لم يقع . وفي التفسير (منع منا الكيل) . أي يمنع منا . و (نادي اصحاب النار) أي ينادون . وقال الحطيثة :

شهد الحطيثة حين يلتقى ربه
ان الوليد احق بالمدد

يريد : يشهد ، لانه قال : حين يلتقى ربه ، ولم يلقه بعد .

« ويكون ايضا يفعل : لما وقع ، ولما لم يقع ، مثل قوله :

ولقد امر على اللثيم يسبني
فمضيت عنه وقلت لا يعنيني

كانه قال : ولقد مررت ، لانه قال : فمضيت عنه . وقال الآخر :

واني لايبكم تشكر ما مضى
من الامر واستيجاب ما كان في غد

أي ما يكون في غد . . . » .

وقال ايضا (90) : « ومن الاصباد - وهي آخره (يريد آخر الكتاب) - : اذ في القرآن لما مضى في معنى اذا ، واذا لما يستقبل ويجريه ايضا في معناها . وقال الله عز وجل (ولو ترى اذ فرغوا فلا فوت) و (لو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم) المعنى يفرغون اذا ، ويوقفون ولم يوقفوا بعد . وقال ايضا : (واذا قال الله يا هبسى ابن مريم) وكان القول يكون في القيامة . لهذا لما لم يقع . وقال أبو النجم :

ثم جزاه الله عنا اذ جرى
جنات عدن في العالسي العلى

كانه قال : اذ يجري ، لان هذا لم يقع بعد . . . وقال اوس :

والحافظ الناس في الزمان اذا
لم يرسلوا تحت هائد ريبا

وهبت الشمال البليل واذا
بات كميع الفتاة ملتفما

الوصف كقول العرب : انه قليل وفوق القليل ، ولا تكون بمعنى دون مع الاسماء كقول العرب : هذه نملة وفوق النملة ، وهذا حمار وفوق الحمار قال : لا يجوز ان تكون فوق في هاتين المسألتين بمعنى دون لانه لم يتقدمه وصف ، وانما تقدمته النملة والحمار وهما اسمان . . . » .

وهذا التمليل لجمال «فوق» من الاضداد خاطيء، فهذا اللفظ لا يكون بمعنى «دون» ابدا . وصبارة انه لاحق وفوق الاحق ، اي يريد منه حمقا ، لا دونه حمقا . فالتكلم بهذه العبارة يريد منها المبالغة في وصفه بالحمق لا التقليل وكذا حال «فوق» مع جميع الصفات . اما مع الاسماء فاختلف فيها ، ولكننا نقول ايضا انها بمعنى «اعظم» لا لغير . فمعنى الآية «ان الله عز وجل لا يستحيي ان يضرب الامثال بالبعوضة» وما هو اكبر منها حجما من الحشرات والحيوان ، مثل الذباب والطيور والكلب والحمار ، التي استمد منها الامثلة في الآيات المختلفة . فاذا كان يقصد من البعوضة الضالة والصفر ، فالمنى انه سبحانه وتعالى لا يستحيي ان يضرب الامثال بالبعوضة وما هو اعظم منها صفرا وضالة شأن . فالتفسيران يبينان ان «فوق» لم تخرج من معناها الاصلي ، وهو «اعظم» .

ونلحق بهذا النوع قول قطرب الذي يشير منا ابتسامة (88) : قالوا : ليال درع : سود الصدور وبيض الامجاز ، وليال درع : بيض الصدور وسود الامجاز ، وشاة درعا يا هذا : يضاء المؤخر سوداء المقدم ، وشاة درعا - سوداء المؤخر يضاء المقدم » وقال ابن الانباري مملقا « وتابع قطربا على هذا جماعة من البصريين » .

فماذا كان يضيره لو فسر الليلة الدرعا والشاة الدرعا كما فعل عبد الفتاح بدوي بما اختلط بياضها وسوادها كأنها تلبس درعا ، دون اشارة الى المقدمة والمؤخرة فاستراح من هذا في الاضداد . وما اكثر الاضداد التي من هذا النوع .

11 - الافعال ذات الدلالة الزمنية المختلفة ، قال قطرب (89) : « وقالوا فعل : لما وقع ، وفعل :

(88) 142 . واورده أبو حاتم 132 ، وابن الانباري 165 ، وأبو الطيب 271 . وابن الدهان 10 ، والصغاني 465 .

(89) 121 .

(90) 218 .

فقال : اذ واذا فى معنى واحد ... » .

وإرضى أبو عبيدة هذا النوع من الأضداد ،
وإدخله فى كتابه . قال ابن الأنباري (91) : « قال
أبو عبيدة : كان من الأضداد ، يقال : كان للماضي ،
وكان للمستقبل . فأما كونها للماضي فلا يحتاج لها
إلى شاهد ، وأما كونها للمستقبل فنقول الشاعر :

فأدرت من قد كان قبلي ولم ادع

لمن كان بعدي فى القوائد مصنما

أراد لمن يكون بعدي . قال وتكون كان زائدة ،
كقوله تعالى (وكان الله غفورا رحيمًا) معناه والله
غفور رحيم .

« قال أبو عبيدة : ويكون من الأضداد أيضا ،
يقال : يكون للمستقبل ، يقال : يكون للماضي . فكونه
للمستقبل لا يحتاج إلى شاهد ، وكونه للماضي قول
الصلتان يرثي المفيرة بن المهلب :

قل للقوائل والغزاة اذا غزوا

والبكرين وللمجد الرائح

ان الساحة والشجاعة ضمنا

قبرا بمرؤ على الطريق الواضح

فاذا مررت بقبره فاعقر به

كوم الجلاذ وكل طرف سابع

وانضح جوانب قبره بدمائها

فلقد يكون أخدام وذبالح

أراد : فلقد كان .

« قال أبو بكر : والذي نذهب إليه ان « كان
ويكون » لا يجوز أن يكونا على خلاف ظاهرهما ، إلا
إذا وضع المعنى . فلا يجوز لقائل أن يقول : كان عبد
الله قائما ، بمعنى يكون عبد الله . وكذلك محال أن
يقول : يكون عبد الله قائما ، بمعنى كان عبد الله .
لأن هذا ما لا يفهم ، ولا يقوم عليه دليل . فإذا انكشف
المعنى حمل أحد الفعلين على الآخر ، كقوله جل
اسمه (كيف تكلم من كان فى المهد صبيا) معناه : من
يكون فى المهد فكيف تكلمه ، فصلح الماضي فى موضع
المستقبل لبيان معناه . وانشد الفراء :

(91) 28 - 69 .

(92) أوردته أبو حاتم 198 ، وابن الدهان 18 ، والصفاني 646 .

فمن كان لا ياتيك إلا لحاجة

يروح لها حتى تقضى ويفتدي

فاني لا يكتم تشكر ما مضى

من الأمر واستيجاب ما كان فى غد

أراد ما يكون فى غد . وقال الله عز ذكره

(ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) فمعناه :

وينادى ، لأن المعنى مفهوم . وقال جل وعز : (يا أيها

منع منا الكيل) فقال بعض الناس : معناه يمنع منا .

وقال الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقي ربه

أن الوليد أحق بالمدر

معناه : يشهد الحطيئة . وقول أبي عبيدة : كان
زائدة فى قوله تبارك وتعالى : (وكان الله غفورا
رحيمًا) ليس بصحيح ، لأنها لا تلتفى مبتدأة ناصبة
للخبر ، وإنما التأويل البتداء عند الفراء ، « وكائن الله
غفورا رحيمًا » فصلح الماضي فى موضع الدائم ،
لأن أفعال الله جل وعز تخالف أفعال العباد ، فأفعال
العباد تنقطع ، ورحمة الله جل وعز لا تنقطع وكذلك
مغفرته وعلمه وحكمته . وقال غير الفراء : كان القوم
شاهدوا الله مغفرة ورحمة وعلمًا وحكمة ، فقال الله
جل وعز : (وكان الله غفورا رحيمًا) أي لم يزل الله
عز وجل على ما شاهدتم » (92) .

ويرى الباحثون البلاغيون أن هذه الانفصال لم
تخرج من زمنها ، سواء أدلت على الماضي أم على
المضارع ، فهي مختلفة بمعناها الإصلي . وإنما
استعمال المضارع فى الماضي التفات ذهني ، كما يبرز
القائل الصور والاحداث الماضية ، ويجلبها تحت
سمع السامع والقارىء وبصرهما ، وكأنها تحدث فى
الحاضر ، لتكون أشد تأثيرًا فيه ، وانطباعًا فى
ذهنه . واستعمال الماضي فى الزمن الحاضر التفات
ذهني ، كما يبرز القائل تأكده من حدوث هذه الانفصال
فى المستقبل ، وتيقنه من ذلك ، وكأنما قد وقعت
حقًا وانتهى الأمر . أما استعمال الانفصال الماضية
والمضارعة فى غير زمنها فى بعض الشعر لغير فرض
بلاغي ، فإنما هو أمر فرضته - فى غالب الظن -
الضرورة ، وليس بالتوسع اللغوي ولا الأضداد .

أرى ثم وجها شوه الله خلقه
فقبح من وجهه وقبح حامله

وقال أبو دؤاد يذكر نرسا :

فهي شوهاء كالخوالق فوها
مستجاف يضل فيه الشكيم «

وأورد أبو حاتم وغيره هذا اللفظ أيضا ، ونسره
الأول تفسيرا واضحا ، إذ قال : « قال أبو عبيدة :
مهرة شوهاء : قبيحة وجميلة . قال أبو حاتم : لا
اظنهم قالوا للجميلة : شوهاء إلا مخافة أن تعيبها
مين ، كما قالوا للفراب : أمور لعدة بصره » .

وهذا النوع من التمجير ليس من الأضداد
أيضا ، لأن قائله يريد أن يوهم السامع بحقيقة اللفظ
لا ضده ، أو يوهم نفسه أيضا ، فهو حين يصف
المدووغ بالسليم يريد أن يوهم نفسه وسامعيه بأنه
سليم معافى ولا خوف عليه . ولا يريد بأي حال من
الأحوال أن يتصوره مدووغا متألما . وكذا الحال في
بقية الألفاظ . وقد تقدّم بد الفتح بدوي هذا النوع
فقال منه : « إذا طبقنا بسائط علوم اللغة من أمثلة
هذه الطائفة وجدنا المعنى الثاني مجازيا للكلمة ،
والأول هو المعنى الحقيقي ليس غير ، ومعنى الضدية
لا يتحقق بين الحقيقة والمجاز لانهما لا يتساويان في
فهمهما من الكلمة ، وإنما الذي يفهم هو المعنى
الحقيقي فقط ، ولا يفهم المعنى الثاني إلا بتقرينه ،
وبالانتقال من المعنى الأول حتما ، فيفوت معنى
الضدية .

13 - صيغة افعال قال قطرب (98) : « ومنه
أيضا شكاني فلان فأشكيت : إذا شكاك فاعتنته ، وقد
يقولون أيضا : فأشكيتك ، أي زدتك شكوى . ويقال :
شكا الي ما لقي فما أشكيتك أشكاه ، وقال الراجل :

12 - عبارات التفاؤل والتطير ، قال قطرب
(93) : ومنه أيضا : رجل أمور : للذهاب العين ،
ورجل أمور : للحديد البصر . ويقال غرب أمور ،
لعدة بصره ، وقال الشاعر : - في الدار تحجال
الفراب الأمور - « وقال (94) : « وقالوا : البصير :
الصحيح البصر ، والبصير : الأعمى . والآدم :
الأيض ، والظبية الأدماء : البيضاء . وآدم : أسود .
وبعير آدم : حسن البياض شديد سواد المقلتين » .

ووجد هذا النوع عند مؤلفي الأضداد جميعا ،
وعند غيرهم . قيل في أضداد الأصمعي (95) : « قال
أبو زيد : التاهل في كلام العرب : العطشان ،
والتاهل : الذي قد شرب حتى روي ، قال النابغة :

الطامن الطنعة يوم الولى
ينهل منها الأسل التاهل

أي يروى منها العطشان . وقال الأصمعي : الأثى
ناهلة ، والجميع نهال ، ورجل منهل : أي معطش ،
وأبل نهال : أي مطاش ، يتطيرون بها من العطش
فيقولون : هذه أبل ناهلة .. » .

وقال الأصمعي (96) : « سموا المفازة مفعلة من
فاز يفوز : إذا نجا ، وهي مهاكة ، قال الله جل
لناؤه : (فلا تحسبنهم بمفازة من المذاب) أي منجاة .
وأصل المفازة مهلكة ، تنفاهلوا بالسلامة والفوز ،
كقولهم للمدووغ سليم ، والسليم : المعانى » .

وأضاف أبو عبيدة عبارات التطير ، إذ قيل
في أضداد الأصمعي (97) : « قال أبو عبيدة يقال :
فرسي شوهاء . أي حسنة ، ولا يقال للذكر هذا
شيء . ويقال : لا تشوه علي ، أي لا تقل : ما أفصحك ،
فتصيبني بالعين . قال : وما سمعتها إلا في هذين
الحرلين ، وأما التبح فيقال : قد شوه الله خلقه ،
ورجل أشوه ، وامرأة شوهاء ، قال الحطيئة :

- (93) 75 . وانظر ابن الأنباري 269 ، وأبا الطيب 508 ، وابن الدهان 16 .
(94) 76 ، 17 . وانظر أبا الطيب 63 ، 12 ، وابن الدهان 7 .
(95) 45 . وأورده قطرب 55 ، وأبو حاتم 135 ، وابن السكيت 318 ، وابن الأنباري 65 ، وأبو الطيب
637 ، وابن الدهان 20 ، والصفاني 680 .
(96) 38 . وأورده ابن السكيت 319 ، وابن الأنباري 59 ، وأبو الطيب 560 والصفاني 615 .
(97) وأورده أبو حاتم 220 ، وابن الأنباري 181 ، وأبو الطيب 408 ، وابن الدهان 13 .
(98) 201 . وأورده أبو حاتم 147 ، وابن السكيت 365 ، وابن الأنباري 140 ، وأبو الطيب 390 ،
وابن الدهان 13 ، والصفاني 526 .

وتائم : اذا تجنب المائم ، كما يقال : قد تحوب الرجل ، اذا تجنب الحوب ، ولا يستعمل الحوب في المعنى الآخر . . . وقال ايضا تحت حرف من الاضداد ، يقال : تحت الرجل : اذا اتى الحنث ، وقد تحت اذا تجنب الحنث . . . » .

وقال الرضى 103 : « والاغلب في تفعل معنى صيرورة الشيء ذا أصله ، كناهل وتالم . . اي صار ذا أهل ، والم . . . فيكون مطاوع فعل الذي هو لجعل الشيء ذا أصله اما حقيقة كما في البته فتألب وأصلته وتأصل ، واما تقديرا كما في تأهل ، اذ لم يستعمل أهل بمعنى جعل ذا أهل . ومن الطبيخي ان هذه الصيغة تأتي من الأفعال التي تصلح فيها المطاوعة . .

وقال الرضى ايضا (104) ان تفعل تأتي للتكلف نحو تشجع وتحلم ، وما هو بشجاع ولا حلیم . . اي الصفة منتفية عنه مسلوبة منه ، وللاتخاذ ، ويشترط ان يكون أصل الصيغة اسما لا مصدرا مثل تردى وتوسد من الرداء والوسادة . فهذا المعنى يأتي من الاشياء المادية لا المجردة . وتأتي ايضا للعمل المتكرر في مهلة نحو تجرع وتفهم . وكذلك بمعنى استفعل في الطنب ، والاعتقاد في الشيء انه على صفة أصله ، نحو تنجزه واستعظمته ، ومن الواضح ان الفعل فيهما متمد لا لازم ، واخيرا تأتي للتجنب .

ولو وضعنا هذه المعاني المختلفة لصيغة «تفعل» بجوار معنى التجنب ، لظهر لنا الفرق الجلي . فالصيغة فيهما جميعا - ماعدا التكلف - متمدية لا لازمة ، بخلاف الحال في معنى التجنب . فالاختلاط والتشابه اذن بين التكلف والتجنب . والائنان يفيدان السلب كما رأينا ، لان متكلف الشيء يشمر بعدم وجوده فيه ، ولذلك يتكلفه . ولكن هناك امرا ذاتيا فيهما يفرق بينهما : ذلك هو الاصل المشتقة منه الصيغة . فاذا كان الاصل مكروها فالصيغة للتجنب ، مثل تائم وتحوب . واذا كان الاصل محبوبا فالصيغة

تمد بالاعتناق او تلويها

وتشتكي لو اننا نشكيها

وارضى الاصمعي هذا النوع ، وادخله في الاضداد ، قال (99) : « اطلبت الرجل : اعطيته ما طلب ، واطلبته : الجأته الى ان يطلب ، ومنه قول ذي الرمة :

اضله راحيا كلية صدرا

عن مطلب وطلی للاعتناق تضطرب

يقول : بعد الماء منهم حتى الجأهم الى طلبه ، ويروى : - عن مطلب قارب وراده عصب - . « ويقال : اشكيت الرجل : اذا اثبت اليه ما يشكو منه ، واشكيت : نزلت شكايته .

قال الراجز :

تمد بالاعتناق او تلويها

وتشتكي لو اننا نشكيها

والامر في هذا النوع يسير ايضا ، فالمعنى الاصلي فيها التعدية ، قال الرضى (100) : « المعنى الغالب في أفعل تعدية ما كان ثلاثيا » ، فالمعنى الاصيل لاطنب واشكى جفاه يطلب ويشكو . ولكن هذا الطاب ، وهذه الشكوى ، كانا سببا في الاستجابة ، اي ازالة اسباب الطلب والشكوى . فارتبط السبب (الشكوى) والسبب (ازالته) في ذهن العربي ، فربط بينهما في لفته ، واطلق عليهما لفظا واحدا . ولكن هذا اللفظ كان حقيقيا حين اطلقه على المسبب . .

14 - صيغة تفعل ، قال قطرب (101) : « ويقال : تائم فلان : كره الائم ، وهو من لفظ الائم ، وحر ج ايضا بخرج : ائم » .

وقال ابن الانباري (102) : « وتائم حرف من الاضداد ، يقال قد تائم الرجل اذا اتى ما فيه المائم ،

(99) 92 . واورده ابو حاتم 179 ، وابن السكيت 364 ، وابن الانباري 48 ، وابو الطيب 457 ، والصغاني 561 .

(100) شرح الشافية 1 - 86 .

(101) 90 .

(102) 105 . وانظر ابا الطيب 17 ، وابن الدهان 6 ، وابا حاتم 231 .

(103) 111 . واورده ابن السكيت 445 ، وابن الدهان 9 .

(104) شرح الشافية 1 : 104 - 107 .

والاصل : انا منقود لك ، وانت منقود لك . قال ابو حاتم : « والاصل في المختار اذا كان فاعلا : مختير ، فكرهوا حركة الياء فأسكنوها ، ثم قلبوها ألفا للفتحة قبلها . واما مختار مفتعل ، فالاصل : مختير ، الياء مفتوحة فكرهوا حركتها فأسكنوها ثم قلبوها ألفا . وكذلك مكنال ، لانه من بنات الياء ، من كال يكيل ، فكرهوا حركة الياء فأسكنوها ، ثم قلبوها ألفا لانفتاح ما قبلها . ومعتد ، أصلها معتد ، بالكسر للفاعل . ومعتد ، بالفتح للمفعول به ، فتحركت الـدالان : فأسكنوا الاولى ثم ادغموها في الثانية فاستوت الـمغلطان » .

ورضي التوزي وابن الدهان عن هذا النوع فادخله في اضدادهما ، ولكنه لم يحفظ بمثل هذا القبول منذ غيرهما ، فنقده ابو الطيب - كما رأينا - نقداً مرا ، ونفاه من الاضداد واكتفى فيره باهماله . وكشف عبد الفتاح بدوي عن رايه في هذا النوع في قوله : « ولا جرم ان دعوى التضاد في هذه الطائفة انما هو اعتبار للنخمة الصوتية فقط ، مع تناسي حقيقة الكلمة ومقياسها فمختار الذي أصله مختير بكسر الياء لا يمكن ان يقال انه مختار الذي أصله مختير بفتحها . ومن ثم تكمن دعوى التضاد في هذه الطائفة اشبه بالهدر منها بالحقائق العلمية ، لان التضاد انما يتصل بالمعاني لا بالانغام » .

ونسي هذا الكاتب ان التضاد يقوم على الانغام (اصوات الكلمات) ومعانيها في نفس الوقت ، وانه لو فرق بين الاثنين ما وجدت الاضداد ، وما وجد بحث فيها . ونسي ان الصرفيين عندما يقولون ان مختار أصلها مختير بكسر الياء اذا كانت اسم فاعل ، او بفتحها اذا كانت اسم مفعول ، فكرهت حركة الياء فحذفت ، وقلب الياء ألفا ، لا يريدون بذلك ان العرب نطقوا بها - اول ما نطقوا - بالياء المحركة ، ثم مر عليهم طور نطقوا فيه بالياء الساكنة ، ثم في الاطوار الاخيرة بالالف . فحسب اللغوي ، وذوقهم اصوات الالفاظ ، جعلهم يستعملون اللفظ بالالف منذ الوهلة الاولى ، لانهم لم يستحسنوا غيرها ، حتى قبل وجوده . اما الصرفيون فيفترضون انه لو كانت اللفظة في أصلها على هذا البناء ، لاستمر بها

للتكلف والشظاهر مثل تكرم وتحلم وتشجع . ويؤكد لنا ذلك ان الالفاظ الستة التي قيل انها تأتي للتجنب مأخوذة من امور مستكرهه ، وهي : تحنت ، تأثم ، تخرج ، تحوب ، تنجس ، تهجد ، والهجود مستكره للاتقياء الذين يجمل بهم ان يقضوا الليل في العبادة وذكر الله ، ومن هنا وصفته بالاستكراه (105) ولما كان العرب يستعملون هذه الصيغة في احد المعاني كانوا يحرمون استعمالها في غيره الا اذا كان لا يلتبس به ، ولذلك قال الرضي (106) : « ليست هذه الزيادات قياسا مطردا ، فليس لك ان تقول في ظرف : أظرف ، وفي نصر : أنصر ... وكذا لا تقول : نصر ولا دخل . وكذا في غير ذلك من الابواب ، بل يحتاج في كل باب الى سماع استعمال اللفظ المعين ، وكذا استعماله في المعنى المعين ، فكما ان لفظ اذهب وادخل يحتاج فيه الى السماع فكذا معناه الذي هو التقل مثلا ، فليس لك ان تستعمل اذهب بمعنى ارال الذهب ، او عرض للذهب ، او نحو ذلك » . وبدلنا عن ذلك انهم لم يرووا لنا شواهد على استعمال هذه الالفاظ في غير التجنب . وصرح ابن الانباري بان تحوب للتجنب وحده .

15 - الصيغ التشابهية في ظاهرها التضادة المعاني وفقا لاختلاف تصريفها وأصلها .
قال قطرب (107) : « ومنه ايضا اردات الرجل : امنته وارديته ، وقول الله جل ثناؤه (ودعا يصدقني) وقالوا ايضا : ارديته : امنته ، وارديته : اهلكته » وظهر امثلة من هذا النوع صيغة اسمي الفاعل من « افتعل » و « انفل » من الاجوف والمضامف . وقد زاد هذه الفئة ابو حاتم في اضداده ، قال (108) : « ما كان من المعتل من بنات الياء والواو التي في موضع الفين ، او من المضامف على مفتعل ومفتعل ، لفظهما فيه سواء ، كقولك : مختار ، للفاعل والمفعول به ، اجترت هب الله من الرجال فانا مختاره وهو مختار ، وكذلك المزدان من الزين ، والمعاض ، والمقتال والمعتد ، الفاعل والمفعول به ، يقال : امتد فلان شيئا ، فالرجل معتد ، والشيء معتد . وكذلك المنقاد ، تقول : اتقدت لك ، فانا منقاد (لك) ، وانت منقاد لك .

(105) انظر تاج العروس : حنت .

(106) شرح الشافية 1 - 84 .

(107) 185 .

(108) 175 .

« ويقال ناقة نني : اذا ولدت بطنين ، وثنيها : ما في بطنها .. »

وسار المتأخرون على هذا النهج ، الذي اختطه الرعيل الاول من اللغويين ، فاورد ابن السكيت وابو حاتم وابن الدهان والصفاني ما اورده السائقون عليهم من امثلة هذا الصنف من الازداد . واورد ابو حاتم مثالا لم يورده من قبله ، قال (113) « المجرم : المود الذي يدخن به . والمجرم ايضا : الذي يوضع فيه الدخنة ، ومنه قول ابن احمر :

لم يعد ان فتق الشجاع لهاته
وافتر قارحه كلز المجرم

اراد انه اول ما بزل ، فقارحه مثل الحديد التي يلزها المجرم مثل الشميرة او اصفر »

ونستطيع ان نضع في هذا الصنف امثال ما جاء في اعداد الاصمعي (114) : « الراوية : البمير الذي يستقى عليه الماء ، يقال : رويت عليه اروي رية : اذا استقيت عليه ، وبه سميت الراوية التي عليه ، وانما هي المرادة ، قال ابو النجم :

تمشي من الردة مشي الحفل
مشي الروايا بالمواد الاثقل

يقال : اردت الناقة ، وذلك اذا كانت عطشى ثم رويت فعطنت ، فيفتح ضرعها حتى تحسب انها حامل . »

وجعل عبد الفتاح بدوي هذا النوع والفاظ التفاؤل والتطير طائفة واحدة ، ووجه اليها النقد الذي ذكرته مانفا . والحق ان المعنى لم يتغير ولم يتضاد في أي لفظ منها . وانما كان من سنن العرب اطلاق اللفظ الواحد على الشيء وما يلزمه ، لاتجاه الدهن الى الاثنين معا كلما ذكر احدهما . فكان اللفظ في اصالته يدل على احد المعنيين ثم انتقل مجازا

التغيير الى ما صارت عليه . فكانما اقام الكاتب رده على افتراضات . واعتبرها حقائق علمية ، فانهار نقده ، ولم يستطع الوقوف على قدميه . فالصفتان في الحقيقة والواقع لا فرق بينهما ، ولم يكن يوجد فرق صوتي بينهما فقط ..

ولكننا - بوجه انهيار نقده - لا نستطيع ان نلحق بهذا النوع من الالفاظ معنيين متضادين وانما نقول ان فيها تضادا في اتجاه المعنى ، لا المعنى نفسه . فهو مرة متجه الى الفاصل ، واخرى الى المفعول ، ولكنه هو هو في المرتين . فالاختيار لم يتغير ، وانما اتجه القائل ذات مرة الى فاعل هذا الحدث ، واتجه في المرة الثانية الى الذي وقع عليه الحدث . تلك هي الانواع التي اطلق عليها قطرب لفظ الازداد ، وادخلها في كتابه . وقد ارتضاها اكثر المؤلفين كما رأينا - وزادوا عليها انواعا اخرى، فتتبعها في كلامنا التالي ..

16 - الازداد المجازية ، اي التي احد معنيها حقيقي ، والاخر مجازي . ويتمثل هذا النوع في صنفين من المجاز :

1) فالصنف الاول : الالفاظ التي تطلق على الاناء وما فيه . وظهر هذا الصنف عند ابي عمرو بن العلاء . قيل في اعداد الاصمعي (109) : « قال ابو عمرو : الارة : النار ، والارة : الحفرة التي فيها النار » . ووجد عند ابي زيد ، قيل في اعداد الاصمعي (110) « الظمينة : المرأة على البمير ، ويجوز ان تكون في بيتها . قال ابو زيد : الظمائن : الهوادج ، وانما سميت النساء ظمائن لانهن يكن فيها » . وارضى ابو عبيدة هذا الصنف ، قيل في اعداد الاصمعي (111) : « قال ابو عبيدة : الكاس : الاناء الذي يشرب فيه ، والكاس : ما فيه من الشراب » وسار على ذلك الاصمعي ، وروى في اعداد (112) :

(109) 64 . واورده ابن السكيت 338 وابن الانباري 208 والصفاني 373 .

(110) 68 . واورده ابن السكيت 342 وابن الانباري 100 وابن الدهان 15 والصفاني 566 .

(111) 67 . واورده ابن السكيت 341 وابن الدهان 18 والصفاني 639 وجعله ابن الانباري من اشباه الازداد .

(112) 65 . واورده ابن السكيت 339 وابن الانباري 211 وابو الطيب 119 وابن الدهان 8 والصفاني 416 .

(113) 273 . واورده ابن الدهان 8 .

(114) 69 . واورده ابن السكيت 343 وابن الانباري 101 وابن الدهان 11 .

الى المعنى الثاني لما بينهما من تلازم فى الواقع والذهن .

(ب) لفظ امة ، الذى زاده ابن الانباري ، اذ قال (115) : « امة حرف من الاضداد يقال : امة للواحد الصالح الذى يؤتم به ، ويكون طمعا فى الخير ، كقوله عز وجل : (ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا) . ويقال : امة لتجماعة ، كقوله عز وجل : (وجد عليه امة من الناس يستقون) . ويقال : امة ايضا للواحد المنفرد بالدين .. » .

وواضح ان عد هذا اللفظ من الاضداد فيه تصف . فالمعنى لم يتضاد فى اطلاق اللفظ على المفرد او الجماعة . بل انى اعتقد انه - حين يطلق على الفرد - يحتفظ بدلالته على الجماعة . فالآية تصف ابراهيم عليه السلام بانه كان يعادل فى دينه وورعه وتقواه الجماعة من الناس ، او انه جمع ايمان الامة وورعها وتقواها فى شخصه ، او انه كان كل المؤمنين فى وقته القانتين الحنفاء ولم يكن مؤمن غيره .

واضاف ابن الانباري الى ما سبق انواعا اخرى ، لست على يقين اكها من عنده ام ينقلها عن غيره ، اذ لا دليل يميل بالمرء الى احد هذين الرأيين الا فيما استنده الى غيره . وهالك هذه الانواع :

17 - الافعال التعدية واللازمة بمعنى واحد . قال (116) : « زال حرف من الاضداد . يقال : قد زال المكروه عن فلان ، وقد زال الله المكروه عنه بمعنى ازال ... وغان حرف من الاضداد . يقال : خان التميم فلانا ، وغان الدهر التميم فلانا . فيكون التميم فاعلا فى حال ، ومفعولا فى حال ، وغان غير متغير اللفظ . . وطل حرف من الاضداد . يقال : طل فلان دم فلان اذا ابطله ، وطل دم فلان : اذا بطل ، والاختيار طل دمه ... ولا شك ان ابن درستويه كان يتحدث عن هذا النوع ، حين ذكر ان العرب تحذف احيانا حرف الجر للتخفيف عند كثرة الاستعمال . فالاستعمال الاصيل للفعل كان باللوزم ثم حدثت منه اداة التعدية للخطفة .. »

(115) 169 واورده ابن الدهان 6 ، والصفاني 381 .

(116) 175 - 177 . واوردها ابن الدهان 12 ، 10 .

(117) 116 .

(118) انظر كتاب التطور النحوي لفة العربية لبرجشتراسر .

(119) 191 .

18 - الحروف والادوات ، التى تدل على معان مختلفة مثل قوله (117) : « قال بعض اهل العلم : ان حرف من الاضداد اعني المكسورة الهمزة المسكنة بالنون ، ، يقال : ان قام عبد الله ، يراد به : ما قام عبد الله . حكى الكسائي عن العرب : ان احد خيرا من احد الا بالعافية . فمعناه : ما احد . وحكى الكسائي ايضا عن العرب : ان قائما ، على معنى ان انا قائما ، فترك الهمز من انا ، وادغمت نون ان فى نون انا : فصارتا نونا مشددة كما قال الشاعر :

وترميني بالطرف اي انت مذنب
وتقليشني لكن ايباك لا اقلي

اراد : لكن انا ايباك ، فترك الهمز وادغم . يقال ان قام عبد الله ، بمعنى : قد قام عبد الله . قال جماعة من العلماء فى تفسير قوله جل وعز (فذكر ان نعت الذكرى) معناه : فذكر قد نعت الذكرى . ومن هذا الصنف ايضا ملاحه لهل ، وما ، واو ، وقلده فيها الصفاني وابن الدهان ولم يكن اعتبار هذه الحروف من الاضداد من ابتكاره انما هو مقلد فيها ، بدليل عبارة « قال بعض اهل العلم » ويبدو انه يريد بذلك الكسائي فى هذه المادة . وحقيقة الامر فى هذه الحروف والادوات انها بقايا الفاظ قديمة ، تخلفت لدينا من الاطوار الاولى من اللغة ، وان معظمها يتألف من عناصر اشارية مثل النون . فهذه المعاني المنسوبة اليها ، وصلت اليها من مراحل مختلفة من التطور اللغوي ، ولا يستطيع الحكم بان هذه الانواع من الالفاظ من الاضداد (118) .

وقد عقب عبد الفتاح بدوي على هذا النوع بقوله : « ودعوى التضاد فى هذه الطائفة تهاوت لان معنى اللفظ لا تضاد فيه لان الاوضاع مختلفة فما النافية ليست ما الموصولة حتى تعقد تضادا او غير تضاد بين المعنيين » .

19 - التصغير ، افاضه ابن الانباري فى قوله (119) : « من الاضداد ايضا التصغير ، يدخل لمعنى التحقير ، ولمعنى التعظيم . فمن التعظيم قول

محالة يتغير معناه بعض الشيء عند التأليف : ضيقا
وانساعا ، ليألف مع جيرانه ويتجه معها في اتجاه
وأحد . ويجب أن تقوم دراسة الأضداد على الألفاظ
المفردة ، لا المؤلفات في عبارات .

20 - ما يحتمل معنيين متضادين من العبارات .
واعتقد ان الذي دفع ابن الأنباري الى الخوض فيه
اتصاله بالقرهان . ونستطيع ان نصنفه الى ثلاث
فئات ، هي :

أ - الآيات القرآنية ، وهي اكثر الفئات ورودا
في الكتاب ، واكبرها حظا من تناول المؤلف ، الذي
يطيل في بعضها ، ويورد اقوال المفسرين المختلفة .
ومن اقصر الامثلة على ذلك قوله (121) : « ومما
يفسر من كتاب الله جل وعز تفسيرين متضادين
قوله جل اسمه : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون
يكنم ايمانه) فيقول بعض المفسرين : الرجل المؤمن
هو من آل فرعون ، أي من امته وحيه ومن يدانيه في
النسب . . ويقول آخرون : الرجل المؤمن ليس من
آل فرعون ، انما يكنم ايمانه من آل فرعون . وتقدير
الآية عندهم : وقال رجل مؤمن يكنم ايمانه من آل
فرعون » .

ب - الشعر ، وهو ان كان اقل من الآيات عددا
الا ان حفظه من التناول لا يقل عن حفظ الآيات طولا .
ومثاله قوله (122) : « ومما يفسر من الشعر
تفسيرين متضادين قول قيس ابن الخطيم :

اتعرف رسما كاطراد المذاهب
لعمره وحشا غير موقف راكب

ديار التي كادت ونحن على منى
تحل بنا لولا نجاء الركائب

قال ابن السكيت : اراد بقوله : غير موقف راكب،
الا ان راكبا وقف ، يعني نفسه . وقال غيره : لم يرد
الشاعر هذا ، ولكنه ذهب الى ان «غيرا» نعت
للرسم ، تاويله : اتعرف رسما غير موقف راكب ،
أي ليس بموقف للراكب لاندراس الآثار منه وامحاء
معالمه فمتى بصر به الراكب من بعد دهر منه ، فلم
يقف به . . » .

العرب : انا سر يسير هذا الامر ، أي انا اعلم الناس
به . ومنه قول الأنصاري يوم السقيفة : انا جديلهما
المحكك وعديقهما المرجب ، أي انا اعلم الناس بها .
فالمراد من هذا التفسير التعميم لا التحقير .
والجديل : تفسير الجدل ، وهو الجدع ، واصل
الشجرة . والمحكك : الذي يحتك به ، اراد انا
يشتفى برأيي كما تشتفى الابل اولات الجرب
باحتكائها بالجدع . والعديق : تفسير العلق ، وهو
الكباسة ، والشمرخ = العظيم . والمرجب : الذي
يعمد لعظمه . وقال لبيد في هذا المعنى :

وكل اناس سوف تدخل بينهم
دويبية تصفر منها الانامل

فصفر الداهية معظما لها لا محقرا لشأنها . . .» .

واختلف العلماء في التفسير ، قال الرضى
(120) : « قيل : يجيء التفسير للتعميم ، فيكون
من باب الكناية ، يكنى بالصفر عن بلوغ الغاية في
العظم ، لان الشيء اذا جاوز حده جانس ضده . . .
واستدل لجيء التفسير للإشارة الى معنى التعميم
بقوله :

وكل اناس سوف تدخل بينهم
دويبية تصفر منها الانامل

ورد بان تفسيرها على حسب احتقار الناس
لها وتهاونهم بها ، اذ المراد بها الموت : أي يجيئهم ما
يحتقرونه مع انه عظيم في نفسه تصفر منه الانامل .
واستدل ايضا بقوله :

فويق جبيل شاهق الراس لم تكن
لتبلغه حتى تكمل وتمملا

ورد بتجاوز كون المراد دقة الجبل وان كان
طويلا ، واذا كان كذا فهو اشد لصعوده » .

نضيف الى ذلك ان تفسير اللفظ المفرد لا يفيد
الا الصغر وما احاط به من ظلال وإبحاءات كالرحمة
والاشفاق والعطف والتدليل وما اليها . اما المعاني
الآخري التي تسبغ على الألفاظ المصفرة نتائجها من
تأليفها مع الفاظ أخرى في سياق واحد واللفظ لا

(120) شرح الشافية 1 : 191 .

(121) 292 . وانظر 167 - 8 ، 196 ، 223 ، 234 ، 237 ، 265 ، 270 ، 272 - 3 ، 297 ،

299 ، 333 ، 341 ، 353 - 57 .

(122) 183 . وانظر 197 ، 219 ، 238 .

ج - الاقوال . وهي تعادل الشعر كثرة ،
ويتفاوت حفظها من طول تناول . واقصر امثلتها
قوله (123) : « ومن الاضداد ايضاً : قولهم : ائتمت
ان تذهب معنا ، يحتمل معنيين : احدهما ائتمت
الا تذهب معنا ، والآخر ان تذهب معنا . وكذلك
نشدتك انه ان تذهب معنا ، يحتمل المعنيين
جميعاً ... » .

ووضع هذه العبارات في الاضداد غريب ،
انكره بحق المستشرقون وعبد الفتاح بدوي . فلا
يوجد لفظ معين يمكن ان يلحق به معنيان متضادان .
وانما يستفاد المعنيان من السياق والقرائن .

21 - المقلوب من العبارات ، بان ينسب الحدث
الى غير فاعله . وامثلته نادرة عنده كقوله (124) :
« ويقال تهيبت الطريق وتهيبني الطريق بمعنى ، وهذا
من الاضداد .. قال ابو بكر : وهذا عندي مما يقلب
لان اللبس يؤمن في مثله ، فيقال : تهيبني الطريق ،
لانه معاوم ان الطريق لا تهيب احداً .. » .

ووجد ابن الانباري مجموعة من الالفاظ تقارب
الاضداد ، ولكنها لا تماثلها كل المائلة ، فميزها عنها
بعض التمييز ، وسماها احياناً « اشباه الاضداد »
واحياناً « ما يجري مجرى الاضداد » ونجد تحت
الاسم الاول الاصناف التالية :

1 - الالفاظ ذوات المعاني الحقيقية والمجازية
قال (125) : « سمع حرف من الحروف التي تشبه
الاضداد يكون بمعنى وقع الكلام في اذنه او قلبه ،
ويكون سمع بمعنى اجاب . من ذلك قولهم : سمع
الله من حمده ، معناه اجاب الله من حمده . ومن هذا
قوله عز وجل : (اجيب دعوة الداعي اذا دعان) قال
بعض اهل العلم : معناه اسمع دعاء الداعي اذا دعان .
وقالوا : يكون سمع بمعنى اجاب ، واجاب بمعنى
سمع ، كقولك للرجل : دعوت من لا يجيب ، اي
دعوت من لا يسمع ، وانشدنا ابو العباس :

دعوت الله حتى خفت ان لا

يكون الله يسمع ما اقول

اراد يجيب ما اقول . وقال جماعة من المفسرين :
معنى الآية اجيب دعوة الداع اذا دعان فيما الخيرة

(123) 200 - 202 . وانظر 159 ، 160 ، 206 .

(124) 56 .

(125) 80 . واورده ابن الدهان 12 ، وعقب عليه بان فيه نظراً .

(126) 231 .

للداعي فيه ، لانه يقصد بالدعاء قصد صلاح شأنه ،
فاذا سئل ما لا صلاح له فيه فان صرفه عنه اجابة
له في الحقيقة . . . والحق ان الاجابة معنى مجازي
لسمع ، لان السمع اول مرحلة من مراحل اجابة
الطلب او الدعاء ، او هي نتيجة السمع عند الرضى .
فلا اجابة بدون سماع . ولما كان الامران بهذا الارتباط
صح توسيع معنى السمع والاجابة بحيث تشمل
المراحل كلها . فهذا الاستعمال توسع وتجاوز لا تضاد .
ولا شبهه . ويبدو من عبارة ابن الانباري انه ينقل
كلام بعض الناس قبله . ونفع في هذا السنف
لنظري كس وطبخ الذي سبق الكلام عليهما .
واعترهما ابن الانباري من اشباه الاضداد .

2 - الالوان . قال (126) : « وما يشبه حروف
الاضداد الاحمر ، يقال : احمر للاحمر . ويقال رجل
احمر اذا كان ابيض . قال ابو عمرو بن العلاء : اكثر
ما تقول العرب في الناس اسود واحمر . »

قال : وهو اكثر من قولهم اسود وابيض ، وانشد
ابن السكيت لاوز بن حجر :

واحمر جمدا عليه النسور

وفى ضنة تغلب منكسر

وفى صدره مثل جيب الفتا

ة تشفق حيناً وحيناً تهر

قوله : في ضننه : معناه وفي ابطه . والشغلب :
ما دخل من طرف الرمح في جبة السنان . وقوله :
تشفق حيناً : شقيق الطمئة ان تدخل الريح فيها
فتصوت . وهر : معناه تقبب . وكذا قال عن
الاصفر والاخضر والاسود . ولكن هذه الالفاظ
جميعاً لا تضاد ولا شبهه فيها ، وانما الالوان نفسها
لا تكون خالصة ، فبعضها اصفر مائل الى السواد ،
وبعضها ابيض يشوبه شيء من حمرة ، وبعضها اخضر
يغلب عليه السواد . . . وهكذا . ولم تضع العرب
الفاظاً خاصة لجميع هذه الالوان الفرعية ، اكتفاء
بالرئيسية منها ، فاصبح اللفظ الواحد يطلق على
الدرجات المختلفة من اللون ، فظن انه من الاضداد .
وادخل الصغاني وابن الدهان هذه الالوان كلها في
اضدادها ، كما ادخل قطرب فيها الاصفر .

3 - عبارات الاستهزاء . قال (127) : « ومما يشبه الاضداد قولهم في الاستهزاء : مرحباً بفلان ، اذا احبوا قربه ، ومرحبا به اذا لم يريدوا قربه . فمعناه على هذا التأويل : لا مرحبا به . فالمعنى الاول اشهر واخرى من ان يحتاج فيه الى شاهد . والمعنى الثاني شاهده :

مرحبا بالذي اذا جاءه الـ

خير او غاب غاب عن كل خير

هذا هجاء وذم ، معناه مرحباً بالذي اذا جاء غاب عن كل خير ، جاء الخير او غاب . وتأويل مرحباً : لا مرحبا به

« ومما يشبه الاضداد ايضا قولهم للعاقل : يا عاقل ، وللجاهل اذا استهزؤوا به : يا عاقل ، يريدون يا عاقل عند نفسك ، قال الله عز وجل : (ثم صبوا فوق راسه من عذاب الحميم ، ذق انك انت العزيز الكريم) معناه عند نفسك ، فاما عندنا فلست عزيزاً ولا كريماً . وكذلك قوله عز وجل فيما حكاه عن مخاطبة قوم شعيب شعيباً بقولهم : « انك لانت الحليم الرشيد » (ارادوا انت الحليم الرشيد عند نفسك) قال الشاعر :

فقلت لسيدنا يا حليم

انك لم تأس اسوا رفيقاً

اراد يا حليم عند نفسك فانما عندي فانت سفيه .

وهذه العبارات لا تضاد ولا ما يشبه فيها ، فالمتكلم حين وصف الجاهل بالعاقل لم يقصد قط ان يصفه بحقيقته وهي الجهل ، بل اراد وصفه بالعاقل . واهني بذلك انه لم يقصد قط ان يصفه بحقيقته وهي الجهل ، بل اراد وصفه بالعقل . واهني بذلك انه لم يرد ان تصور انساناً جاهلاً بقوله « يا عاقل » ، بل ارادنا ان تصور انساناً عاقلاً ، ونستحضر هذه الصورة امامنا حتى نمثلها احساساً بها ، ثم ننظر الى هذا الجاهل ونرى مدى انطباق

الصورة عليه . ومن المفارقة في الصورتين يأتي الاستهزاء والضحك . ولو كان يريد منا ان نتصور انساناً جاهلاً بقوله هذا ، ما جعلنا نضحك ، لان الصورتين ستنطبقان : ولا تبرز المفارقة بينهما ..

اما الصنف الثاني ، او ما يجري مجرى الاضداد عنده ، فهو الاعلام التي يختلف في هويتها او امجبيتها . قال (128) : « ومما يفسر من كتاب الله جل وعز تفسيرين متضادين قوله عز وجل : « طه » . قال بعض المفسرين : معناه ، يا رجل ، بالسريانية . وقال فيره : معناه : يا رجل ، بلغة عك ، وزعم ان عكا يقولون للرجل : طه ، وكذلك للرجال والنسوة ، وانشد :

ان السفاه كطه من خليقتكم

لا قدس الله اخلاق الملايين

وقال الاخفش : طه علامة لانقطاع السورة من السورة التي قبلها . وقال الفراء : طه بمنزلة السم ، ابتدا الله جل وعز بها مكتفياً بها من جميع حروف المعجم ، ليدل العرب على انه انزل القرآن على نبيه باللغة التي يعلمونها والالفاظ التي يعقلونها كي لا تكون لهم على الله حجة . «

وقال (129) : « ومنها ايضا يعقوب يكون عربياً لان العرب تسمى ذكر الحجل يعقوبا وبجمعونه يعاقيب ، قال سلامة بن جندل :

اودى الشباب حميدا ذو التعاقيب

اودى وذلك شأو غير مطلوب

ولى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه

لو كان يدركه ركض اليصاقيب

واجري نفس القول على اسحاق ، وعلى لفظ من غير الاعلام ، هو مشكاة ، التي قيل انها حبشية ، وقيل عربية . ولا شك ان الاساس الذي اقام عليه ابن الانباري القول بتضاد هذه الاعلام او جريانها مجرى الاضداد منهار لا قائمة له ، ولا يحتاج الى تفنيد ..

(127) 156 ، 157 . واوردهما ابن الدهان 11 ، 16 .

(128) 314 .

(129) 337 .

تحليل ونقد

الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني
الرباط

وكان أبو الطيب اللغوي هو الذي أزال كل ابهام عن اللفظ فقال : ضد الشيء ما نأفاه ، وليس كل ما خالف الشيء ضدًا له .

وذكر في الفصل الثاني أن موقف اللغويين القدماء من هذا النوع من الألفاظ اختلف ، فارتضى جماعة منهم وجودها ، واعترف بها ، وتحدث عما يندرج تحتها من الفاظ ، وعللها أحيانًا ، وكانت هذه الجماعة أسبق في الظهور من معارضتها إذ كان منها أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وتلاميذهم ، واستمر المنتسبون إليها في البقاء إلى يومنا هذا .

أما الجماعة الأخرى فاعترضت على الأضداد وانكرتها ، و نعرف من انتمى إليها من القدماء غير ابن درستويه ولا تصح نسبة ذلك لشعرب ، وكثير أرباعها في العصر الحديث ، فكان منهم عبد الفتاح بدوي كاتب مقالة (ضدان) في دائرة المعارف الإسلامية (مادة أضداد) وكان منهم أغلب المستشرقين الذين كتبوا المقالات والرسائل الصغيرة في رفض الأضداد .

وقد دافع القائلون بها عن وجودها وردوا على ما قاله المعارضون ولعل أهم من قام بهذا العمل أحمد ابن فارس ، وابن سيده ، ومحمد بن القاسم الأنباري ، فأقام ابن سيده دفاعه على الجدل العقلي ، واعتمد ابن فارس في أحد رأيه على طبيعة اللفظة

كتاب (الأضداد في اللغة) تأليف حسين محمد ، من الجمهورية العربية المتحدة تناول فيه بالدرس العميق الهادي الرزين المستوعب ظاهرة الأضداد في اللغة العربية من جوانبها المختلفة ، وأولى عناية خاصة لدراسة مواقف المؤلفين من الأضداد قديما وحديثا خصوصا المشتبين والنافين لها . ويقع في 129 ص ، وقد جمعه في مقدمة وبابين وخاتمة ، فاستعرض في المقدمة نشأة الدراسات اللغوية في اللغة العربية ، مؤكدا أن اللغويين تنبهوا للأضداد في القرن الثاني فشرعوا يلتفتونها ، ويشيرون إليها ويتحدثون عنها .

وكانت الشجرة الطبيعية أول تدوين للأضداد في اللغة العربية ، وكانت هذه الشجرة الأولى باكورة عدة ثمار جمعت الأضداد ودرستها ، وحول هذا الثمار تدور الصفحات الآتية : متاملين ، متدقيقين ، ومقدرين .

وتناول الباب الأول الاختلاف في مفهوم الأضداد وفيه خمسة فصول : تعريف الأضداد ، والاختلاف في وجود الأضداد ، وأصل الأضداد ، وشروط الأضداد ، وأنواع الأضداد .

فذكر في فصل تعريف الأضداد أن قطريا ذكر أن من اللفظ الواحد الذي يجيء على معنيين فصاعدا ما يكون متفادا في شيء وضده ، وتابعه ابن الأنباري ، وأبو حاتم السجستاني .

العربية . وفي الراي الثاني على الرواة الذين نقلوا لنا الاضداد ، وكان ابن فارس اكثر توفيقا في دفاعه عن الاضداد واقرب الى طبيعة اللغة وما تفرضه من مناهج ويؤسفنا الا نعثر على كتابه الذي الفه في الدفاع عن الاضداد .

واما ابن الانباري فقد تناول واحدا من آراء المنكرين ورد عليه بل لعله اهم راي لهم .

ولما كانت كتب المعارضين من القدماء، لم تصل الينا كنا مضطرين للاعتماد على حكايات غيرهم عنهم .

وقد اجملت دائرة المعارف الاسلامية والدكتور منصور فهمي الادلة التي اعتمد عليها المستشرقون في انكار الاضداد ...

وفي اصل الاضداد ، ذكر ان اللغويين منذ تنبهوا الى الاضداد واختلفوا فيها وهم في محاولة دائبة لتعليلها والكشف عن نشأتها وكيف وجدت في اللغة ، واشترك في هذه المحاولة من انفتحت آراؤهم ومن اختلفت ، ومن اعترفوا بها ومن رفضوها والقدماء والمحدثون والعرب والمستعربون.

واختلفت الطرق التي سلكها العرب وغير العرب في دراسة هذه الظاهرة اللغوية في كثير من الاحيان ، فقد اوغل بعض المستشرقين في تاريخ البشرية وارجع ظاهرة الاضداد الى العصور القديمة عندما كان العقل البشري في سداخته فلم يكن يفتن لما يحتويه من تناقض ، وتوسط بعضهم في الايفال فام يرجع الى التاريخ البشري واقتصر على التاريخ العربي القديم . وان العرب اقترضوا بعض هذه الاضداد من اللغات المجاورة لهم ولما كان معناها الاصلي قد تختلف ابعاءاته فقد ادى ذلك الى التضاد في اللغة .

واقصد بعضهم الاخر ونظر في تاريخ الجماعة الواحدة فوجد فيه من التطور ما يؤدي الى التضاد دون استعارة من الخارج .

ولم يلتفت فريق الى التاريخ وبحث عن العلة فيمن يراه من جماعة وفرد وما يسودها من ظواهر ذات تاثير في اللغة فذهب الى ان بعض المعانسي المتضادة يرتبط بعضها ببعض وتتدامى في الذهن فيتؤدي الى التضاد .

اما اللغويون العرب فقصروا جهدهم على الالفاظ العربية ولم يبعدوا عنها لا تاريخا ولا لغة ولا اجتماعا، وحاولوا ان يتبينوا اصولها ونشأتها ومسالكها في اللغة العربية نفسها ، ويؤدي بنا التأمل الدقيق في العال التي اوردها الدارسون للغة العربية نفسها دون حاجة الى الفلسفة او للعشور على نظرية عامة او الابعاد في مجال التفكير البشري الى ان اهم ما قالوه من علل واخطره هو المعنى الاصلي للالفاظ فنحن في حاجة الى اعادة النظر في هذه الالفاظ وفيما ذكره لها اللغويون من معان ونسب حاجة الى محاولة استكشاف الطريق الى المعنى الاصلي الحق لها ، الذي لا يابه بما حولها من ملابسات ، ولا بما يرتبط من اشواط، سائر في طرق معتدلة آنا ومعوجة آونة ، فان وصلنا الى ذلك المعنى غمرنا الضوء من كل مكان ، واستبان لنا تطور اللفظ ، وما اكتسبه من معان ودلالات ، وما احيط به من ظلال ، جعلته مشوبا بالغموض احيانا ، وعرضة للخطأ احيانا اخرى.

واما بقية العال فهي ارتباد لبعض الطرق التي سلكها اللفظ ليصل الى درجة التضاد ، مثل اللغات، والمجاز والحذف للتخفيف وما اليها من امور .

كذلك يؤدي بنا التأمل الدقيق في الاقوال السالفة الى نتيجة قد تبدو غريبة ولكنها حقيقية واقمة ، اعني انه لم يوجد من اللغويين على قدر ما نستطيع الحكم من خلال ما عندنا من معلومات من ينكر وجود الاضداد في اللغة العربية الفصحى ، فمن رفضوا اضدادا ورفضوا اصالتها ، اريد انهم رفضوا ان تكون وضمت اصلا للمعنيين المتضادين ، ولكن ما خضعت له من تطور بالتوسع او المجاز او الحذف ادى الى وجود لفظين متماثلين في كل شيء بحيث لا يمكن ان نفرق بينهما ونعدها لفظين متمايزين غير ان معنييهما متضادان ، كذلك ادى انصباب الروافد القبلية دون تمييز بينها في تيار العربية الفصحى الى ما اشبه الظاهرة السابقة فالفصحى بصورتها الراهنة تحتوي على هذا النوع من الالفاظ (الذي نسميه الاضداد) باعتراف جميع القدماء ، وان اختلفت اصول هذه الاضداد والطرق التي سلكتها الى التيار الحالي .

ويؤدي بنا ايضا الى نتيجة اخرى اجمع عليها المنكرون والمؤيدون هي قلة الاضداد في اللغة العربية الفصحى ...

وفي شروط الاضداد ذكر انه اذا كان من انكر
الاضداد اطلق قوله فيها ثم اضطر الى التراجع قليلا
منه عندما استقصى النظر في اللغة ، او احتوى قوله
على ما يومية الى تراجع ، فاننا نجد الظاهرة نفسها
عند المؤيدين لوجود الاضداد او بعبارة .

لقد كان في وهم المؤلفين الاولين ان الاضداد
الفاظ تلال في اللغة فحاولوا جمعها وبراءها وتحت
اثر من هذا الاحساس ومن هذه الغاية جمعوا مع
الاضداد الفاظا كثيرة مدوها اضدادا وهي واهنة
الصلة بها وكان اكثر المؤلفين وقوما تحت هذا الاثر
قرب اول من كتب عن الاضداد ، فاضطر من جاء
بعده الى ادخال ما قاله في كتابه ، كيلا يتهم بان
فاته من الاضداد شيء .

ولكن اهل القرنين الثالث والرابع كانوا قد
اخذوا يتخصصون من هذا الاثر ، بعد ان راوا ما راوا
امامهم من قبل كتب الاضداد ، فاخذوا يبيدون النظر
فيها ، وفي اضداد قطرب خاصة ، وينقدون منها
كثيرا .

وعند تتبع هذا النقد استخلص المؤلف كثيرا
من الشروط يجب ان تتوفر في اللفظ حتى يدخلوه
في الاضداد ، ولكن الامر المؤسف ان هذه الشروط
اهملها واضعوها انفسهم ، ولم يطبقوها على كثير من
الالفاظ التي دونوها في كتبهم .

وبالرغم من ذلك تتبع المؤلف هذه الشروط
لاهميتها في توضيح صورة الاضداد في اذهانهم ،
وان لم تتحقق كل التحقق في كتبهم .

واهم مؤلف يكثر عنده هذا النوع من الاقوال
هو ابو بكر محمد ابن القاسم الانباري ونستطيع ان
نقول انه يضع الشروط التالية في اللفظ ليمده من
الاضداد :

1 - ان تكون صيغة اللفظ في المعنيين المتضادين
واحدة ، اي ان يكون المعنيان المتضادان لفظيين او
اسمين او صفتين ، وكل منهما على صيغة واحدة ،
ولا يحكم بالتضاد فيما شد من ذلك .

2 - كذلك اشترط ان يكون للصيغة الواحدة
معنيان متضادان لا يمكن ردهما الى معنى واحد .

3 - واشترط ابن الانباري ايضا ان يكون
المعنيان لصيحين لا من ابتكار العامة .

4 - واشترط ان يكون المعنيان معروفين
استعملهما العرب في حوارهم . . وبيندو ان ابا
الطيب يتفق مع ابن الانباري في هذا الرأي ايضا ،
وان لم يعان ذلك صراحة .

5 - واشترط ابو الطيب ان لا يكون المعنى
الثاني مجازيا .

6 - واشترط في المعنى ان لا يكون مقلوبا
او مزالا عن جهته .

7 - وانفرد ابو الطيب- اللغوي باخراج مجموعة
من الالفاظ تتضاد في معانيها ، وتماثل في صورتها
ولكن هذه الصورة التماثلة في ظاهرها مختلفة في
حقيقتها اذ تختلف العنل الصرفية التي وصلت بها الى
صورتها .

8 - بل ذهب الى ابعد من ذلك واخرج من
الاضداد ما اختلف صيغ المجرد والمصدر منه من
الانفعال . ثم استخلص من هذا مجموع صورة الاضداد
في ذهن قطرب ، او عدم وجود حدود لها ، واخذها
في الموضوع والجلء ، والتحدد على مر الزمان فكانت
اللمحات الاولى منها عند ابي حاتم السجستاني ، ثم
كان كمال التحدد والبروز عند ابن الانباري وابي
الطيب .

ويعتبر الفصل الخامس في (انواع الاضداد)
اطول فصول الباب الاول ، اذ يستغرق احدى وثلاثين
صفحة . وبالرغم من احساس العلماء بان الاضداد
ثبات عدة ، فان المؤلف لم يجد بين القدماء من حاول
ان يصنفها قاصرا او شاملا ، وبالرغم من ان المحدثين
اضطروا الى الفصل بين انواع منها ليسهل عليهم
رفضها او تمليلها فانهم لم يرتقوا بهذا الفصل الى ان
يكون تصنيفا .

والرجل الوحيد الذي حاول شيئا من ذلك هو
عبد الفتاح بدوي ، ويبدو انه اراد ان يعرض ما فات
اللفويين فاعطانا تقسيمين ، اما الاول لتصنيف ومحكم ،
ويقوم على اساس نحوي ، فقد جعل الاضداد اربعة
انواع .

وكان التقسيم الثاني واسعا ينظر الى عدة اسس
بحيث تغيب عن النظر الذي يريد ان يصل اليها
للاضداد في هذا التقسيم تقع في عشر طوائف .

وبعد ان ذكرها المؤلف ذكر انه يعني كثيرا
بالتقسيمات النظرية وان كان لن يهملها كل الاهمال

وإنه سيجمل همه كله في تتبع الأنواع المختلفة التي أدخلها مؤلفو الأضداد فعلا في كتبهم إذ اختلف النظر والتطبيق عندهم ، وإنه سيبدأ بأول مؤلف : قطرب إذ توسع في تصور الأضداد أكثر من غيره ، حتى اضطر من جاء بعده إلى تقضيه ورفض كثير منها ، وإنه سيتبع كل صنف منها بما وجه إليه من نقد .

قد وصلت الأصناف عنده إلى ستة عشر صنفاً وضاف ابن الأنباري إليها خمسة أنواع أخرى فصارت واحداً وعشرين نوعاً ، قبل مؤلفنا منها نوعاً واحداً هو ما سماه بالأضداد الحقيقية ويبين في العشرين الباقية كلها أنها ليست من الأضداد في شيء .

ووجد ابن الأنباري مجموعة من الألفاظ تقارب الأضداد ولكنها لا تماثلها كل المماثلة ، فميزها عنها بعض التمييز ، وسماها أحياناً (أشباه الأضداد) . وتناول الباب الثاني جمع الأضداد وتدوينها وفيه أربعة فصول : أسباب هذا الجمع وأهدافه . وبواكير جمع الأضداد ، وكتب في الأضداد وفصول في الأضداد .

وقد لخص الفصل الأول في آخره فذكر أن الدفاع الذي حمل اللغويين على تدوين الأضداد تغير من جيل إلى آخر ، فقد بدأ هوية في القرن الثاني ، ثم صار تقوى تحمل على إزالة ما قد يمتري بعض الآيات من غموض في القرن الثالث ، ثم تحول إلى رغبة في الدفاع عن العرب ولغتهم أمام الدهاوي الشعوبية في أوائل القرن الرابع وحب المعرفة المجردة في ذلك القرن أيضاً ، وانتهى إلى الرغبة في منح الباحثين من المحسنات اللفظية ذخيرة لغوية جديدة في العصور المتأخرة .

وتغير الهدف الذي سمي إليه كل من هؤلاء المؤلفين : فبينما كان أولهم قطرب يسمي إلى استقصاء الأضداد من نهر اللغة مباشرة ، استكثر هذا أبو لحاتم ووجد الأسبيل إليه واقتصر على التطلع إلى جمع ما أمكن ، ثم سعى ابن الأنباري إلى الجمع ولكن من الكتب المؤلفة قبله ، وضافة بعض الشواهد والمثل ، وسمى أبو الطيب إلى ذلك مع التخصيص بقدر ، ثم كان الهدف الاختصار والجمع معاً .

وبواكير جمع الأضداد ، ذكر أن الخليل كان بعد الأضداد من عجائب الكلام ووسع العربية

قد أشار إلى قدر منها في (العين) وروى واحد من الأضداد من يوسف بن حبيب ، ورويت ثلاثة عن الكسائي وما نسب إلى الفراء لا يمتدى الضد أو الاثنين .

وتكثر الأضداد بعض الشيء عند أبي عمرو الشيباني ثم تكثر وتتنوع عند أبي زيد الأنصاري ، وبقي بعض الناس يوردون أضداداً بعد عهد التأليف فيها ، دون أن يشاركواهم في تدوينها في كتب خاصة ، مثل ابن الأعرابي .

ويعتبر الفصل الثالث من الباب الثاني الخاص بكتب الأضداد أطول فصول الكتاب إذ أنه يقع في 52 صفحة .

فقد عثر في أثناء بحثه عن الأضداد على أسماء ثلاثة وعشرين كتاباً فيها ، ثم أورد أسماءها مرتبة بحسب وفيات مؤلفيها ، مع بيان المفقود والوجود منها والمخطوط والمطبوع .

ثم تصدى للكلام على كل واحد منها بخصوصه ، وأصفاً دارساً مقارناً ناقداً . في أثناءه وثبت وأنصف .

وفي الفصل الرابع والأخير عن فصول في الأضداد ، درس ما ورد في الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والمخصص لابن سيده ، والزهر للسيوطي .

ولخص في (الخاتمة) النتائج التي توصل إليها في الكتاب .

الأضداد ظاهرة لغوية :

فالداهن ينكرها للوهلة الأولى ، ويأبى أن يصدق وجود لفظ واحد يدل على معنى وضده ، وعلى هذا الأساس أنكرها من أنكرها ، ولكن هذا الأساس لم يمنع أن يؤمن بها جماعات من القدماء وقلة من المحدثين ، وكانت الفئة الأخيرة أو أفراد منها هي التي حاولت أن تملل هذه الظاهرة الغريبة ولعل ظاهرة لغوية أخرى لم تحط بمثل سوء التفاهم الذي أحيطت به ظاهرة الأضداد ، فمنذ عهد ميكر اختلف اللغويون فيها ، وما زالوا مختلفين ، فإذا تأملنا ما دار بينهم من نقاش وجدنا الفاعلهم وعباراتهم تتناثر وتتصادم ، والمؤدى الأخير لما يقولون واحداً ، فهم يتجادلون حول تصورين لا تصور واحد . وفي

مجالين لا مجال واحد ولو تحدثوا عن تصور واحد ،
وفي داخل مجال واحد ، لهذا كثير من الخصومة ويطل
كثير من الأدلة ، وربما ضاع الخلاف .

فقد كان المنكرون للأضداد ينظرون في مجال
ضيق لا يتجاوز آية لهجة قبلية على حديثها ، ولما لم
يعتزوا على الأضداد في داخل اللهجة الواحدة انكروا
الأضداد برمتها وأبوا أن يسموا بالأضداد ما جاء دالا
على معان متضادة في لهجات قبلية مختلفة ، وأن
ضممتها اللغة العربية بعد .

وقصر المنكرون تصورهم على الألفاظ في وضعها
الأول واعتلوا أنهم لم يجدوا لفظا واحدا وضعه العرب
حين وضعوه إلا على معنيين متضادين ، أما إذا كان
الاستعمال أو التبدلات اللغوية أو التغييرات الصرفية
قد أدت بعد ذلك إلى أن تزول الفوارق بين بعض
الألفاظ ذوات المعاني المتضادة فتبدو الآن في صورة
واحدة ومتضادة المعنى ، فليس ذلك من الأضداد
عندهم .. وتستطيع أن تقول : أن كل لفظ توفر له
سبب ما فإدى به إلى الدلالة على معنيين متضادين
يأبى المنكرون أن يسموه ضدا ، مهما كان السبب :
لهجات قبلية أو حذفا ، أو تخفيفا ، أو ابدالا ، أو
إملا ، أو مجازا ، أو تبالا وتطيرا ، أو ما شاكل
ذلك من أمور ، وإنما الضد عندهم يجب ألا يكون
هناك سبب في دلالة هذه ، بل وضع أصلا لها .

أما المؤيدون للأضداد فوسعوا نظريتهم
ومجالهم : نظروا إلى اللغة العربية في شمولها
وعومها فنفت نظريتهم وجود هذه الفئة من الأضداد ،
ثم لم يعنوا بالبحث عن أسبابها ، أو - أن شئنا
الدقة - لم تهتمهم الأسباب فقد عرفنا أسبابا
للظاهرة ، وأعلن أكثرهم أن كثيرا من الأضداد دالية
من اللهجات القبلية ، وكشفوا عن كثير من هذه
الطائفة من الألفاظ ، ولا خلاف بينهم وبين المنكرين
غير أنهم ارتضوا تسمية هذه الألفاظ القبلية بالأضداد ،
ولم يرتضها الآخرون .

كذلك لم يقصر المؤيدون نظريتهم على الألفاظ عند
وضعها الأول ، بل أهملوا هذا الوضع هامدين إذ لا
أهمية له عندهم . وامنوا النظر في الألفاظ العربية
التي يسمونها ، ويتحدثون بها ، ويدونون ما يدونون ،
فوجدوا فيها فئة من هذه الألفاظ التقطوها ومنحوها
اسم الأضداد ، دون أن يابهاوا للأسباب التي أدت إلى
ذلك ودون أن ينكروا هذه الأسباب ، بل لقد شاركه

بعضهم كقطرب في الكشف عن بعضها
كالتوسع وما شاكله لأن وجود سبب للتضاد لا يتنافى
عندهم مع التسمية .

ولعل الإجابة عن الأسئلة التالية تزيد كل لبس
أمام المتنازعين :

1 - هل توجد في العربية الفصحى التي نعرفها
اليوم الفاظ ذوات صورة واحدة ومعنيين متضادين ؟

اعتقد أن أحدا لا يستطيع أن ينكر هذا الوجود .

2 - هل تعد هذه الألفاظ ظاهرة خاصة يجدر
بها التسجيل بين الظواهر اللغوية ؟ اعتقد أن أحدا
لا ينكر هذا أيضا ، وأضيف إلى ذلك أن هذه الظاهرة
لا تنفرد بها اللغة العربية ، بل توجد في بعض اللغات
السامية كما كشف بعض المستشرقين ، وفي بعض
اللغات الأوربية كما كشف الاستاذ عبد الفتاح بدوي ،
وإذن لوجود الأضداد ليس منقصة للغة العربية كما
ظن الشمويون قديما ، وكما يفهم من أقوال بعض
المستشرقين حديثا ، مما كان واحدا من الدوافع
- في اعتقادي - التي حملت عبد الفتاح بدوي على
المغالاة في رفض الأضداد .

3 - هل تستحق هذه الظاهرة تسمية خاصة ؟
اعتقد أن كل ظاهرة مهما كان شيوعها يجدر بها أن
يكون لها اسم خاص ، أما المؤيدون فقد سموها
(الأضداد) فإذا كان المنكرون يجدون لها تسمية
أكثر ملاءمة ، فأهلا بها .

4 - هل الأضداد بالشيعوع الذي صوره القدماء؟
واضح من الدراسة الماضية أن تصور الأضداد اختلف
من وقت لآخر ، ومن رجل إلى رجل ، فضاقت حينها
وأتسع آخر ، فكان تصور الأضداد ضيق المجال في
بإدائه الأمر مند المتحدثين فيها دون أن يحاولوا لها
جمعا أو تدوينا ، ولكن هذا التصور اتسع اتساعا
غريبا عند أول مؤلف في الأضداد ، قطرب ، لتشمل
شئنا هربيا من الألفاظ ، مما يدل على أن قطرب لم
يكن يحسن تصور الأضداد ، ولا أحسن وضع الحواجز
الفاصلة بينها وبين غيرها ، واضطر أكثر من جاء
بعد قطرب إلى تضيق المجال الذي وسعه ونفى كثير
من الفئات والألفاظ التي أدخلها في كتابه ، فأخذ
تصور الأضداد في الوضوح وحدودها في البروز ،
ثم اتسع المجال مرة أخرى عند ابن الأنباري خاصة لما
أدخل من أنواع جديدة من الأضداد ، وإذن فالمجال

كان متغيراً عند القدماء ، وما أظن إلا أنه كذلك عند
المحدثين وأن كان أضيقت مندهم منه عند القدماء .

5 - هل تمد كل الأنواع التي اتفق عليها
القدماء من الأضداد ؟

اعتقد أن أحداً لا يجادل في أن ذلك مستحيل ،
وأن بعض ما عده القدماء من الأضداد لا يستحق
هذه التسمية ، وضرب لذلك أمثلة :

1 - ما اختلف في تفسيره من الآيات والأشعار
والأقوال .

ب - الفاظ وعبارات التفاضل والتطير
والاستهزاء

ج - ما وضع في الألفاظ تعسفاً أو تكسراً ،
مثل الألفاظ التي تختلف معانيها دون أن تتفاد ،
والألفاظ التي تتضاد معانيها بسبب ما يتعلق بها من
أدوات كرفب عن والى

6 - ما السبيل إلى معرفة اللفظ الجدير باسم
الضد ؟

اعتقد أن السبيل الوحيد إلى ذلك هو المعنى
الذي يدل عليه اللفظ ، وهنا احتراز فأقول المعنى
الذي يدل عليه اللفظ ، وأعني بهذا الاحتراز أمثال

هذه الألفاظ التي لم يحسن بعض اللغويين التنبه إلى
معناها الحق ونسبوا إليها معاني بدت متفاداة ،
فالصريم الوقت المنقطع أعني الوقت المنقطع من وقت
آخر ، كالليل يقطع من النهار والنهار يقطع من الليل ،
وليس الصريم الليل خاصة ولا النهار خاصة

وأمثال ذلك كثيرة ، تفتن إليها بعض القدماء
أنفسهم ...

وإذن فما وجدنا من الألفاظ معانيه تؤول إلى
معنى واحد لا تضاد فيه يجب أن نخرجه من الأضداد ،
وما دل من الألفاظ على معنى واحد : سواء كان معنى
خارجياً أو ذهنياً يجب أن نخرجه من الأضداد ، وما
دل من الألفاظ على معنى واحد : سواء كان معنى
خارجياً أو ذهنياً يجب أن نخرجه من الأضداد .

وإنما يجب أن يكون الضد لفظاً واحداً ، ذا
صورة واحدة ، ومميين متضادين حقاً لم يكن
الجمع بينهما ، تلك هي الصورة الصحيحة للأضداد ،
وذلك هو السبيل التويم إلى تطبيقها .

ويتجلى من هذا المرض القيمة العلمية لهذا
الكتاب وما يدل فيه مؤلفه من الوقت والجهد وما
تحلى به من الصبر والتثبت والثبات ، وما تحراه من
دقة التعبير والتجرد .

النظرة اللغوية ونشوء العربية

الأستاذ محمد يوسف نور الدين
بيروت

ان اللغة هي منزل الكائن البشري هيدجر... وان اساس اللغة لا يقوم على ما تحويه من كلمات ، وانما يقوم على تركيبها الخاص وبماكاننا ان نقول : ان العرب في ظل الاستعمار ، لجأوا لحماية هويتهم الى اللغة العربية أو بالحري الى اللغة العربية القديمة . ومن هنا نلمس قوة وصلابة قيم ومزايا العربية التي ناضلت بنجاح ، لا ضد غزوات اللغات الغربية المسلحة بقدرة علمية ، على الايصال وحسب ، وانما كذلك ضد اللهجات « المحلية العامية » التي حاول الاستعمار تغذيتها لزرع الفرقة والتجزئة (المستشرق جاك بيرك) .
- والتطور اللغوي ونشوء العربية مفاخرتان في قلب الزمان ، وشوق الانسان اليهما ، الاولى : سفر في التاريخ وغوص الى اعماقه ... ثم ارتفاع مالد الى شواطئه الحاضر ، محمل بلاليه الاعماق . والثانية : ارتقاء الى المستقبل ، وحوم على اماليه... ثم اكتشاف فني سيد يعود بالبشرى المقامر . من هنالك كانت نشأة اللغة العربية ، وبهذا السبيل النشوي تسير فلان توقف بعد اليوم .
فاللغة بالاصل وجدان يتراعى بالكلمة ، وهما مرآة ذات وجهين في ايها نظرت تطالعك البهجة . فحاضرنا مشكل ، عديد المشاكل ، وقد زج انساننا العربي في اعتم المقلقات واطرها ، ان في لغته ، او في عقيدته او في وجوده .

وعندي ان في هذه المقلقات اللغوية متشابكة تشابكا .
وقد ماش هذا القلق المصري ، مفامر ، يتخطى ، نكتب منذ ثلاثين عاما ، كتاب « مقدمة لدرس لغة العرب » لذا فهذا يعني بان هذه المقدمة هي لاقتضادات معاصرة ، تتائر في كل مكان من ارضنا العربية وتسير الى صعوبات اللغة العربية ومشكلاتها ، او تؤكد سهولتها واطمئنانها حتى لقد تألفت في ذلك مؤلفات جملة .
وبعد فاقول : بان اللغة هي وجدان يتراعى بالكلمة ، وهما مرآة ذات وجهين ، في ايها نظرت تطالعك البهجة .
من هنا كانت نشأة العربية ، وبمجرهاها تسير ، فلا تتوقف بعد اليوم .

العربية واللغات الاخرى :

فاذا هاجر السكان او ماتوا ، خلت المنازل والفتقر غناها ، لهم روحها التي بها تحيا ، واذا تبعت العيون وشاهت الوجوه حالت المرايا وتمكر صفاؤها وانسد استمدادها ، فالصور الصطوبمة عليها وجهها الذي تبدو .

اللغة منزل الكائن البشري ومرآة فكره ، يلجأ اليها لتأكيد وجوده وينطلق بها لتحقيق رغباته .
لكن المنازل تفنى بسكانها ، والمرايا تصفو وتجمل بالعيون الناظرة اليها والوجوه المصورة عليها .

اللغات موطن الشعوب ومرايا أشواقهم .

ادوار اللغات ونشوء العربية

ان تاريخ النشوء اللغوي وتطور اللهجة ، من المواضيع التي لا تزال أقرب الى الغموض منها الى التبيين . ومحاولة الكشف عليها تبسط رأيا جديدا حول موضوع الغموض ، لم تتوقف عند بحوث المتكلمين وجدلهم بقضية اللغات اهي توقيفية، هكذا وردتنا من الله ؟ أم وضعية ، تعارف عليها الانسان ؟ كما لم تقتنع بتقسيمات ، علماء المقابلة اللغوية في هذا العصر .

والحديث عندنا هو ان اغلب اللغات ان لم تكن جميعها قد مرت في ادوار ثلاثة ، مرتقية منها ام غير مرتقية .

1 - دور المقطع البسيط : وهذا يعني بان المقطع كان واحديا غير مركب مثل (ba) وفي هذا الدور ولد الجدول الهجائي (ا ، ب ، ت ، ث ، ..) الخ .

بمختلف اصواته، بمختلف حركاته العربية، وان كل صوت يدل دلالة بعينها ، فمثلا ، (عو) يدل على الحيوانات الزئيرية و (وا) يدل على الصوت المخافت والمتكرر بحركة الفكين .

2 - دور المقطعين : اي دور الجمع بين مقطعين واحدين للدلالة على معنى جديد ، ويعتبر هذا الدور دور محاكاة الطبيعة في مختلف اصواتها ، وفي آخره قصد الانسان الى التاليف من منطقه ، فجمع الانسان السامي بين المقطعين البسيطين (عو) و (وا) للدلالة على ان الحيوان يعوي فتوصل الى (هوا) بمعنى حيوان يصوت أو يواصل التصويت .

والى هذا الدور تنظر المعلمات في العربية ، فهي ثنائية الوضع مؤلفة من مقطعين واحدين فقط .

وباستقرار العربية في الثلاثي بدأت تصحح الصوت فيها ، وتستحصل مثل (هوى) بمعنى صوت الحيوان .

3 - دور المقاطع : اي دور الجمع بين المقاطع البسيطة الواحدية وبين المقاطع الثنائية ، لتأليف دلالة مركبة .

وكان هذا الدور يقصد الانسان تلبية لحاجته الماسة اليه . وفيه اتخذت العربية وحدتها الكاملة واستقرت في الثلاثي .

واللغة العربية موطن العرب ومرآة تفكيرهم . فالمقارنة بين طبيعة اللغات ومميزاتها الحيوية من جهة، وبين طبيعة اللغة العربية وخصائصها من جهة ثانية . فالمقارنة الحقيقية بعيدة عن طبيعة اللغة العربية ، وملاساتها في حياة العربي ، وعلى تحديدها وادراكها يتوقف تصحيح الاسلوب التعليمي وتقويم المنهج التربوي ، واقتصاد الجهود المبذولة .

لان هذه الاسباب اثرت على النفس العربية تأثيرا شديدا وطبعها بطابع غريب من الزهد باللغة .

ومن هذا التأثير وهذا الطابع .

1 - طغيان اللغات الاجنبية على حياتنا العامة في كل مرافقها الضرورية كالبيع والشراء ، حتى يكاد العربي يشعر بالغربة في محيطه العربي وبين ذوي قرباه .

2 - الرغبة الثقافية : وهذه الرغبة لا تنحصر للعربي ، ما لم يلم الاما كبيرا بلغة او اكثر من اللغات الاجنبية ، لان الانتاج الفكري والعلمي المعاصر اجنبي بكل نواحيه .

واننا في حاجة ضرورية لان نعد عقلا عربيا امدادا ثقافيا كاملا ولا يتسنى له ذلك الا بالاقبال على اللغات الاجنبية ، فالمستحضرات الكيماوية ، وقطع الفيار للصناعات الثقيلة وغيرها والادوية كلها لا يوجد لها مفردات مترجمة في العربية ، فاضطر المثقف العربي لان يلم بأكثر من لغة ليتسنى له ان يسير في تيسار التطور والرقي العالمي والعلمي والادبي .

3 - الامتياز : بمعنى ان متعلم اللغات الاجنبية المتحدث بها ، شخص ممتاز او مميز ، لان هذه اللغات بالنظر العام ، عنوان الحضارة في الحياة والشخصية وعنوان الترف العلمي ، والاجتماعي ، والمقلي من كل الوجوه .

وليس في جميع اسباب الشكوى ما يرجع الى طبيعة اللغة وجوهرها وانما هي اسباب مرضية ، غير موضوعية ، خامرت اجيالنا ، فلم تلم بلفتها الام واستصعبتها، ومالت الى اللغات الاجنبية واستسهلتها إلا ان في نظري بان اللغة العربية هي اسهل اللغات ، ان في قانون نحوها ، وصرفها ، أو املاءها أو اشتقاقها بل اكثرها آلية اذا صح التعبير .

كل هذا لا يعني خلو العربية من الغوضى .

وإذا كان الإنسان الفطري لم يتوصل إلى الجدول الهجائي بترتيبه الحالي ، فإنا توصل إليه كمجموعة لكلمات اللغة الفطرية .

وإذا كان الجدول لا يضمن الدراسات بكل كلمة من كلمات اللغة على وجه التحقيق ، فإنه يمكننا الإطمئنان إلى انفصال اللغة عنه ثنائية ثلثية .

كما يمكن الاسترواح بترتيبها الحالي هي ثمانية وعشرون حرفاً .



إن الإنسان القديم جمع بين مقطعين واحدتين للدلالة على معنى جديد .

لقد شرع الإنسان يسمى وراء مقاصده في هذا الدور ، وأخذ يحاكي الطبيعة ومن هذه المحاكاة التي تعتبر مصدره اللغوي الوحيد ترك ثروة لغوية هي أكثر المقاطع الثنائية .

ومن طبيعة الإنسان معاني الجدول الهجائي يوقفنا على مستوى الاخيلة الواضحة ، ويساعدنا على تحقيق التطور الوصفي وتاريخ الاستقاق .

وإننا نورد هنا مقالين يوضحان أن الثنائي من وضع هذا الدور ، هما عبي ، والمعلات .

المثال الأول : عبي، تحلل إلى حروفها ع : وتدل على الحيوان الزليري ، ب وتدل على البيت .

أ - ابدال الهمزة : وهذه ظاهرة قليلة من باحثي الاستقاق العربي قد تنبهوا لها ، مع أن لها خطورتها في بناء الكلم وتحرير معانيها ، فمثلاً : أخي أصلها وحي :

ب - الحذف والتضعيف : وهذه أيضاً ظاهرة لغوية لم ينتبهوا إليها وهي بلا ريب عظيمة الأهمية من حيث وجوه المعرفة .

وخلاصة القول : في أن الإنسان حاكم الطبيعة بمختلف أصواتها ، وقصد في آخرها إلى التأليف من منطقتيه بالمعنى الذي أوضحناه ، للتأليف والجمع بين مقطعين أحاديين وترك ثروة هي أكثر المقاطع الثنائية .

وختام تمهيدنا هذا لادوار اللغات ونشوء العربية لقد مرت شتى ضروب اللغات بأدوار ثلاثة : المقطع البسيط والمقطعين والمقاطع . وأنها لتؤلف جميعها الدور اللغوي البدائي .

ولقد حبيبت لغات وأميتت لغات، وهناك لغات أخذت بالحياة ، وهذه الأخيرة وحدها الفت المهسد اللغوي الثاني عهد اللغات المرتقية .

وتقسم هذه المرتقية باعتبار مرونتها للتصريف والاشتقاق إلى متصرفة وغير متصرفة .

دور المقطع البسيط :

أ - الإنسان الفطري: إن لبث الإنسان الفطري، علماً قائماً بذاته هو علم الإنسان « الأنثروبولوجيا » وما يهمني من ذلك الإنسان الفطري في موضوعي هو البحث عن أصواته السليبية ، التي استقرت في هايتها على صورة وكانت لهجة ، ولا تعتبر الأصوات لهجة ما لم تستقر .

أما إذا أخذنا في تحليل كلمات العربية على معاني الجدول خرجنا بمقارنات يمكن عليها فرض التطور، واليك بعض الأمثلة من الكلمات التالية : شجر ، جبل ، جمل ، سمك .

المثال الأول : شجر ، شجرة وتحل إلى حروفها، ش : معناه سن وهو ينظر إلى مطلق النبات ، ج ومعناه جبل ، وهو ينظر إلى مطلق الارتفاع، ر : ومعناه رأس .

أما المعنى المؤلف : نبات مرتفع له رأس ، وهو تماماً معنى الشجر وانظر إلى تخصيص اللغوي الشجر بما له ساق .

المثال الثاني : جبل وتحل إلى حروفها ، ج : ومعناه ينظر إلى الارتفاع ب ، ومعناه بيت ، ل ومعناه الملاصقة والمساس .

والمعنى المؤلف : بيت مرتفع ملاصق ، وكأنه للسحاب أو للارض وهو تصور صحيح عن الجبل .

ومن هنا لا نطمئن إلى القول ، بأن لغات العالم تفرمت من مصدر واحد ، وإنما هي وليدة أسباب مكانية اجتماعية ، وانفرادية كالعادات وليدة الطبايع والظروف .

ورأينا كذلك حالة لا بد منها في نشوء اللغات ،
واليه يرجع الثاني بما في ذلك العملات ، رأسا على
وجه الاطراد لان واحدا من هذه الحروف ليس اصلا .



لقد كان يقصد الانسان تلبية لحاجته ، اذ كان
يجمع بين المقاطع البسيطة الواحدة وبين المقاطع
الثنائية لتأليف دلالات مركبة . ان العربية اتخذت
وحدتها في هذا الدور واستقرت في الثلاثي .

ان هذا الدور هو عصر الحجر المهدب الذي تم
فيه للانسان كثير من الرقي ، واننا نستعرض ادوار
النشوء في بناء هيكل اللغة على سنة تدريجية غير
أخذة سبيلا من الطفرة او قائمة على اسس المفاجآت
المحضنة .

ولقد كان الانسان بحاجة في هذا الدور الى
الخطاب المبسوط ، بحكم عوامل الرقي والحضارة
والتطور ، فلقد وجه العناية الكاملة الى اصلاح المنطق .

ولقد قسم هذا الدور الى حلقات ، تعاقبت على
اعتبار الثلاثي ، ولم تتغير في اساسها ، وانما اختلفت
في نسب جعلت بينها تفاوتنا ارتقائيا فقط ...

— وفي بحث هذه الحلقات ، حصرنا النظر في
التطبيق على العربية ، ان تطبيقها فيما عدا العربية
يحتاج الى مجهود اكبر ، وعرض اوسع .

1 — يتكون المنطق اللغوي والتعبير عن حاجته .

ب — تكثير اللغة وخوض الزيادة ...

ج — النضج اللغوي عند العرب كما يظهر في
قاعدة القلب ، ومستلزماتها ونتائجها .

د — المعاني التركيبية ، وطريقة الغربي في
وضع الرباعي من الثلاثي ...

ه — المنطق اللغوي ... والتعبير عن الحاجة .

لقد بدل الانسان ما في اسمه في سبيل ان
يخضع ما حوله من أجل معاشه ، واعمل الحيلة لتكوين
منطقه بين مطالب العيش الجديدة فصارت له لغة على
مقياس من تفكيره وحوادثه ...

ومن المعقول بان المنطق اللغوي قد امتد الى
آخر العصر البرونزي الذي تم فيه للانسان وضع
الحجر الاساسي في بناء الحضارة .

لقد بقيت لغة الانسان في المنطق اللغوي على
غير تناسب ولا نظام ، اجتهد في اصطناع كلماتها لابرار
ما في نفسه ولنقل ما يريد الى من يشاركه الحياة
ويجاور المسكن .

وتتألف من :

1 — المفردات ذات المقطع الواحد .. أصبحت
فيما بعد الجدول الهجائي .

ب — المفردات ذات المقطعين ، وهي العملات
في دور النضج اللغوي .

ج — وأخيرا ذات المقاطع ... وهي في النهاية
ذات وحدة في العربية منها تصدر كلمات العربية واليها
تنسب .



ولقد اخترمت الكتابة في هذا العهد ، ما يثبت
لنا التقدم الاجتماعي ، وعلى العقيلة اللغوية الراقية ،
ويشير الى سمو هذا القسم من الوجة اللغوية .

المهم ان اللغة لم تعد اتكالية ابدا بمعنى ان الانسان
لم يعد يتكلم في تكثير اللغة وتسمية الاشياء ، على
المصادفات الطبيعية والملابس الظرفية بل اصبح
يلجأ الى التأليف والتركيب عند الحاجة وحسب
المقتضيات .

ولقد بقيت اللغة فوضوية لسببين :

1 — لم يهتد اللغويون الى ترتيب جدول الهجاء
على وجهه .

2 — وكذلك لم يهتد اللغويون الى قانون الزيادة
ومكانها ، فكان يريد على الثاني هكذا من غير تقرير
لموضع الزيادة .

وهناك تباين بين المنطق اللغوي ، والاكتثار من
اللغة ويرجع هذا الى فرقتين أساسيتين هما: التركيب
والتصدد .

1 — فالثلاثي في المنطق اللغوي كان عبارة عن
تركيب مؤلف من ثلاث كلمات ، فلم يكن مفردا في
مفهومه وان تعين بحكم دلالاته وموضوعه والثلاثي في

الاكثار اللغوي كان عبارة من مؤلف حرفي ، لا دلالة لحروفه على الانفراد في اللغة الابية . :

2 - ان الثلاثي في تكثير اللغة دخله القصد في ان يكون ثلاثيا بينما كان ثلاثيا بضرورة تشخيص الموضوع للواضع .



بعد الاطلاع على ما سبق نعتقد بأنه تم النضج اللغوي عند العرب فلم تعد اللغة في حاجة الى شيء مما كانت تحتاجه أولا ، بل خضعت خضوعا عاما لا اصول في الوضع ، اعتبرها اللغويون (الفيلولوجيون) اسما وارفع ما عرفت امة من الامم ، لقد رتب العربي الجدول الهجائي في طور الاكثار من اللغة ، فلقد كان لمرتب الجنوب على ترتيب خاص يكتبون بها .

ولقد اجتهد في تنظيم قاعدة الوضع حتى استخلص قاعدة موزونة جدا ، وهكذا رتب الجدول الهجائي واصبح ضروريا ان نتكلم في تحديد معاني حروف الهجاء بما تسمح به النصوص المحفوظة .

ومعقول العربي ، في ترتيب الجدول الهجائي ، وفي اعتماده القاعدة بكل فروعها ، وفي ثورته اللغوية التي اخضع فيها لقاعدة جميع مواد اللغة ، هذا معقول وحده يكفل بقاء العربية في مواجهة المستقبل ...

ومن هنا كانت ثورة اللغويين على الانحرافات المضلة ، والاهوام العربية التي تشد معقول العربي حسب العربية للفرد العربي .

ولقد عبر العربي عن معقوله اللغوي الراقى بقاعدة على مواد اللغة .

1 - تصحيح المعاجم

ب - الوقوف على الدخيل من الاصيل .

ج - ان ناخذ الوضع الجديد على مقتضاة لنسد نقص اللغة ونكفي حاجتها .

معاني الحروف العربية

بما تقدم من شرح ، ولر العربي لفته كل عناصر البقاء ، فاعتمد الجدول الهجائي ، بمعانيه الممومية ، نواة اللغة .

واعتمد كذلك خصائصه الحيوية ، ووحدة الكلمة حتى لقد اخضع جميع القوانين اللغوية وكرسها خدمة للغة .

ولم تعد لغة العربي في حاجة لغير مكملات تتحكم باللغة وتنفي عنها التريث البطيء ، وتدفع بها الى المد غير المنجزر .

ولو بقي العربي في جزيرته العربية لبلغت اللغة العربية اوجها في الازدهار والتطور وتنظيم تلك المكملات ، ولما بقيت على فوضى الموازين ، والجموع والمصادر والافعال .

فتوقف تطور هذه اللغة بداعي الخروج من جزيرته ، وتخلل العرب في بقاع متباعدة من الارض .

حتى لقد صادف الفرد العربي من لغته المعاني التركيبية ما لم تؤديه له في النضج اللغوي ، ولقد لاحظ ان معاني هذه اللغة لا تبني سوى على الثلاثي ، كما لاحظ ايضا ان هنالك زيادة في المعنى تفتقر الى ما يؤديها لتتم دلالتها .

من هنا اثبتت حاجة الفرد العربي الى الزيادة ولقد توصل العربي في هذه الحقبة من الزمن الى التعرف على زيادات تصريفية ، جعل موضعها في اول الثلاثي ولم تولد الافعال الرباعية والخماسية ، وكانت هذه الزيادة ، قد استنهدت في وقتها لان العربي كان بحاجة اليها ، وعليه فالزيادات على اقسام :

1 - زيادة البناء : وتتكون هذه الزيادة من الثلاثي ولوضعها الوسط .

2 - زيادة الاشتقاق ، وتتكون من الثلاثي لكي يحصل العربي على الرباعي وما اليه وموضوع الاخر .

3 - زيادة التصريف : من قبل كنفعل واستفعل ، وموضعها الاول غالبا لعدم الالتباس .

4 - اما زيادة الاسناد : كغربت ليست من اقسام الزيادة على معنى التأليف ، بل ان الكلمة تصبح مركبة ، لانها سواء كانت علامة او ضميرا فانها حاجة غريبة عن الكلمة ، وقد تصاف لجمال الاسلوب .

هذه هي الطريقة الفضلى التي كان على العربي ان يسير اليها منذ حقبة من الزمن بعيدة .

لاستحصال الرباعي والخماسي .

التطور في اللهجة

لهجة منزلة كبرى وذات أهمية من اللغة ، ولا تقل شأنًا من الالفاظ ، لأنها قد تكون وحدها فارقا على خطر . ويجدر بنا أن نقول أن تعرضنا للهجة العربية بحد ذاتها ، فهي متعددة الوجوه ، ومتعددة الاجناس ويتكلمها خلق كثير فعلينا إذن أن نتناول هذا البحث من هذه الزاوية من خلال الوجهة العامة وليس تعرضي لكل قبيلة أو لكل جنس على حدة بل بصورة شاملة عامة .

1 - التطور الصوتي :

أن الباحثين والمدققين عن اللهجات أخذوا بقايا التطور المستمر في قبيلة ما علما عليها وحدها ، ولم يراعوا اعتبارات اللهجة الواحدة .

فهذا هو الخطأ بعينه لانه لا يصح من كل وجوهه، وبالتالي لان ما كانوا يسمونه باختلاف اللغات ، ليس له هذا المعنى حقيقة ، بل انها بقايا تركها التطور الذي لم ينته من تكامله .

ومن الامثلة التي خفيت على اللغويين ما يلي :

يعقيد : وهو المسل الذي يعقد على النار وكذلك يعصيد وهي بقلة مرة لها لبن لرج .

النفويون لا يترددون فيما ذهب اليه صاحب المصباح وغيره من الكتب اللغوية، مع اعتبار أن الكلمات السابقة هي ابنية اسمية اشتق عليها توسمه .

ولكن القول بأن العربي مر بهذه الكلمات في عهد من المهود اللغوية السابقة كافعال فقط ، فقد كان العربي يتخذ من الفعل وصفا ينطبق بالحركة حرفا ، فلا عجيبة أن يكون العربي قد وصف بهذه الافعال ، مثل يعقيد وينبوع .

وهكذا تطورت اللغة وظلت هنا دالة على مسمياتها مع الاحتفاظ بكونها الاثير الذي ينظر الى وجوده السابق ، وبرهان ذلك يتلخص في :

1 - بقاء اللهجة المتدرة على لسان بعض القبائل العربية فمثلا لقد ورد في الجاهلية على لسان الشاعر الاسود عنتر كلمة ينباع في قوله :

ينباع من ذفري غضوب جصرة
زيافة مثل الفنيق المكدم

وأن هذه الطريقة هي نظرية ليس للمرء أن يشك بها ومستوجبا الاخذ بها ، ولا بأس من ايراد امثلة تؤكدها ، كالقرطاس ، والعنقاش ، وختلم .

فالقرطاس : ذكرت المعارف الاسلامية معتمدة تحقيقات : ان القرطاس هو ورق البردي وانتهى الى انها دخيلة .

ولو عدنا الى ما قبل هذه الحقبة لوجدنا بأن القرطاس يرجع الى قرط ، والقرط هو ورق الكواث، ولما كان الورق من البردي على نسق ، ايسط ، اضافوا اليه السين لكي يبرهن ويدل دلالة على اهم مميزات الورق النباتي المذكور .

ف ، قرط + س = ورق البردي .

فالقرط مجموما الى السين يدل على السعة والبسطة ويعطي المعنى التحليلي للقرطاس .

- وعنقاش : ومعناه المتجول في القرى وهو كذلك بحسب القاعدة يرجع الى الثلاثي .

عنى : ومعناه شدة المسير ، والشين تدل على التفشي وعدم النظام ، وعليه فالدلالة التامة له السير عنى غير نظام ، وهو المقصود من التجول في القرى .

- وختلم : ويرجع الى ختل في الاصل وهي موضوعة لاخذ الشيء خفية .

وهكذا كان فأخذ العربي من الاولين هذه القواعد لقاعدة العربي هذه نوائد أهمها :

1 - وضع حد للتعريب .

2 - وضع قاعدة صحيحة لابعاث اللغة .

3 - افاة غير محدودة في الوضع للمستقبل ، وسد حاجة اللغة من بين هذا المد العلمي الزاخر بالمصطلحات .

4 - تصحيح المعاجم من الاقدمين ، الذين كان اعتقادهم بأن الرباعي وما اليه تولد بالتركيب والاختزال ، فظن بأن بعثر من بعث - اثير - ومثل شعثب من شق - حطب -

وقد يظن بأن هذا الاخذ الجديد الذي تدل العربية عليه ، من اقرار الموازين بدلالات قارة ، واقرار الاقفال على باب واحد ، وكذلك المصادر والجموع كل هذا لتصل العربية الى المستوى الذي كانت ستصل اليه لو بقيت في محيطها بدون براح .

والانتهاء بمتحرك هو الضمة الممدودة أو الواو ،
ويبدو اليه احتفاظ عمرو بالواو في أملايته. ومن
بديهي القول ان معرفة العرب للكتابة قديم جدا وان
كان تطورها بطيئا ، وهكذا نرى بان عمرو ، كلمة زيدت
عليها الواو التي لا فائدة منها ولا غناء ، اما القول بانها
للتفريق بين عمرو و عمر فأمر هو اقرب الى التخريف
منه الى التطور ، وانطلاقا من كلمة عمرو نرى :

ا - النصوص الحميرية : مثل اخت امهواى
اخت امه .

ب - ما فى لسان بعض القبائل من تحريك
ضائر الجمع للغائب من مثل عليه اليهم وهو معروف
فى الكلام على قراءات القرآن الكريم .

ج - احتفظت العربية بالوقف بالروم فى بعض
المواقف ، والروم مختلطة تميل الى الضم .

د - لقد زادت العرب النون فى فعل فعلوا
وأصبحت فعلون ، لتمكين المنطق والتخلص من
الصوتية .

هـ - بناء فعلين ، يرجع بأمره الى بناء فعل
فعلون فهذا من أفعال الاتباع وهو قانون شائع فى اللغة

الدورة اللغوية الطويلة

ان الظن فى هذا القسم هو انه من المؤكد انها
محركة الاخر ولم تتحرر الكلمة من التقاء الساكنين
ومعنى هذا ان اسبابا من البناء اللغوي القائم ، جعل
اللغة تنهيا للتحلل وان لم يكن على الوجه الاكمل ، وعليه
فقد بقيت الحركة تنطق حرفا فى كثير من مواضع
الكلمة أى لم تمد تنطق كذلك بأطراد ، ومن ثم كان
وجه للتحلل وان لم يكن على الوجه الاكمل وعليه فقد
بقيت الحركة تنطق حرفا فى كثير من مواضع الكلمة لم
تمد تنطق كذلك بأطراد ومن ثم كان وجه للتحليل .

ولمى امتدادنا وبحثنا ان اللغة دارت دورتها وكانت
طويلة جدا ومثمرة كثيرا وخلمت فيه من حركة الاخر،
ولكنها تخبطت فى تجارب كثيرة حتى خرجت العربية
نهائيا بتجربة الاعراب المدهشة .

- ولقد حاول الأستاذ ابراهيم مصطفى صاحب
كتاب (احياء النحو) دوس هذه الظاهرة على وجه
تعليمي نشوئي ولو درس العربية للنهج التطوري الذي
ناخذ اللغة للوصول الى حلول حقيقية وغير رايه فى
اشياء كثيرة .

ووردت عند غيره ينبوع ، فهنا يبرز التباين فى
اللهجة ، بينما يرجعها اللغويون فى المعاجم القديمة الى
بابي طرب يطرب ، وحقد يحقد ، نبع ينبع .

2 - ويذكر بعض اللغويون كابن الاثير والانباري
وابن منظور فى لسان العرب وغيره من اللغويين وكتبهم،
كلمة نعم بانها نصت بنعم كما كذلك وردت فى نعام .

اما النتيجة فواضحة بان هذه الكلمات هي افعال
مضارعة الرية بقيت فى اللغة على سبيل التحفة الالرية.

ورى بعض اللغويين كابن فارس والفيروزابادي
وتاج العروس بان العربية مرت بمهدين :

ا - العهد الصوتي : ويمتاز بقيام اللغة العربية
على الحروف ، ومحافظةها على اسلوب القرآن الكريم
بالفاظ متفاوتة حركة وصرفا . مع الترداف المصنوي
- مثل شيمال وشمال .

ب - العهد اللفظي : ومن اهم مبتكراته قيام
العربية على الحركات وبثحررها ، ولكن تحررا موضعيا
من الصوتية وبتكرها قوانين تمد اللغة للتحرر عنى
الاطلاق .

ونقدر ان نقول بان فى هذا العهد بلغت اللغة
الشوط النهائي من ترقى اللهجة .

ب - صوتية اللغة :

يجب ان يمتاز هذا القسم من الفصل الثانى
تطور اللغة العربية بأمر هامة جدا وهي :

- على المتكلم ان ينطق كل حركة حرفا ، فهذا
مما يدلنا انه كان هنالك كلمات فى اللغات العربية
ولدت بمهود صوتية كما فى المثل المتقدم سابقا ،
شيمال وشمال ، ومما لا شك فيه بانها وودت كذلك
بمهود كانت أكثر صوتية ، حيث كانت مركبة من حروف
ذات اصول لمغلولات بعضها .

- يفرض على المتكلم ان يبدأ كلامه بحركة ساكنة،
وان ينهى حديثه بمتحرك ، نظنه الواو كما فى الاشوية
والبابلية فالابتداء بالساكن ، وهذا مما يدلنا على ان
اللغة مرت فى عهد أكثر سكون ونطقت فيه ساكنة
الاول مثل : اجفيل ، واخريط ، امشوشب ، وقد
اضيفت الهمزة للتوصل الى النطق بالساكن من مثل :
امرؤ امرأة ابن الخ ...

ونخلص الى القول بان الفرد العربي كان همه ان يميث التطور الصوتي ولا يقصد الى التكاثر والتزايد، ولكن وجدت هناك اسباب عملت على حفظ تلك الاثرية في اللغة، مما ساعدنا على استنتاج ما نستنتج لتصحيح ما اخطأ به اللغويون ومن اقرار العربية في الوجة التي قصد اليها العربي، والتي تستطيع بها وحدها ان تكون لغة للمستقبل بين اشياؤه الباقية .

الاسباب التي حفظت الاثرية

من الاسباب التي ساهمت في حفظ الاثرية في اللغة العربية هي :

- 1 - التشخيص العلمي : ومن ذلك يربوع ويسروع .
- 2 - القصد الكنائي : ومن ذلك باجوج وماجوج .
- 3 - حدائة الارتقاء : ومن ذلك انطور وطومار .
- 4 - الكتابة : وذلك لاحتفاظ الفرد في الاملاء بواو عمرو الزائدة مثلا .

1 - التشخيص العلمي : وقولنا هذا يعتمد على ان نتخذ اللفظ مفهوما شخصيا وان يحتفظ بمدلول معين ، فمن الممقول جدا الا يتاثر اللفظ بالتطورات التي تعرض لاصله الا نادرا بعد التشخيص العلمي لانه فارقه في المعنى . ومن الاثرية في هذا القسم من حفظ الاثرية من الافعال المضارعة .

- 1 - يسروع : اسم دويبه تكون في الرمل .
- 2 - يربوع : اسم دويبه اكبر من الفارة .
- 3 - يعسوب : اسم دويبه من النحل شبيهة بالجرادة .
- 4 - يقطين : نبات معروف .

ب - القصد الكنائي : القصد الكنائي يشابه التشخيص العلمي ، ولكن ذلك في المعاني ، فدلالة الكلمة او التركيب ليس الا المعنى المثلث فقط ومن الاثرية المحفوظة في القصد الكنائي يا جوج وماجوج .

اما القصد بكلمة يا جوج ما يلزم عن معناها الكنائي من التاجيح المتدافع ، والتاجيح في كل شيء . اما لغويا فياجوج فعل مضارع من ثلاثي اجج .

اما ماجوج فهو اسم مفعول منه ، وهو التاجيح للمتدافع واظن انه كله يستعمل لعهد القرآن كمثل في هذا المعنى .

ومما ساعد على حفظ مثل هذه الكلمات ووردها في النصوص القرآنية . فبقي لها امكنة واسعة رحبة .

وكذلك ورد في الاحاديث النبوية الشريفة على ما اظن جوع يرقوع ، وفرس يعبوب ، وطريق ينكوب وارض يخضور ، واعتمدنا في تفسير حركات الافعال في ابوابها الستة فالابواب الستة المشهورة هي :

نصر ينصر ، ضرب يضرب ، فتح يفتح ، علم يعلم ، كرم يكرم ، ورت يرت .

- الكتابة : ومن اهم الاسباب التي حفظت ، وعملت على بقاء الاثرية في اللغة هي الكتابة اطلاقا ومن ذلك قولنا في اسم عمرو والواو الزائدة فلولا الكتابة لما وجدت الواو في آخر الاسم .

وان النتائج في هذا البحث تتجلى في تاريخ التفريغ اللغوي وضبط عين الثلاثي ، وانطباع العربية بطابع الاعراب لهذا البحث اهميته الكبرى وهو تاريخ التفريغ اللغوي لانه الاداة الوحيدة للتاريخ والتشعب المدبر .

ان التطور في اللهجة يؤكد البرهان على اهمية الثلاثي ، كما يؤكد كذلك بان اللغة العربية انفصلت بمد تمخضات وبلوغات طويلة واستوت في اكمل ما تكون لغة بما لها من مميزات فانها في الميسرات المبينة في الاعراب والبنية لادق لغة في ملابس اللفظ للمعنى ملاسبة حقيقية .

ومن ذلك ان المثني شاهدا قاطعا لا يقبل التردد في غيرها ، فاننا حين نرى المذهب البياني في اللغات قاطبة يعبر عن الاثنين بسبيل الجمع ندهش كثيرا وعلى وجه غير محدود للدقة العربية ، التي تبالغ في اعتباره ونجد غيره شيئا كئارا يشهد بدقة العربية كلفة، ويشهد بمقدار التسامي اللغوي في طبيعة الفرد العربي .

التطور في اللغة

كان بإمكاننا ان نلج هذا الفصل نظرا لاهميته في طليعة تعرضنا للبحث عن اللغة العربية ولكننا تركناه الى الفصل الثالث ، بعد تعرضنا لخرابين أساسيين من